أولادنا

(٤٢)

طيلة وحسان اليماني

بقلم

عبد التواب يوسف

دار المعارف

obeikandl.com

obeikandl.com

الرسوم الدخلية والغلاف : محمود عزب.

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . م . ع .

«السِّيرُ» العربيةُ، فنٌّ فريدٌ، ليسَ لهُ منْ مَثيلٍ فى كلِّ آداب الدنيا، لذلك عَرفَه العَالمُ بنفْس اسمه الأصيل الخالدِ.. ونحنُ لمْ نَستفدْ منها بقدر كافٍ، ولم نَستثمرْ هذا التّرَاثَ الثريَّ بشكلٍ نَرْضَى عنْه روَائيا.. وهَذِه محاوَلةٌ منْ بيْنِ المحاولاتِ التى قمتُ بها لإعادةِ صِياغةِ جَانبٍ منْ سِيرةِ الزير سالم، إضافةً لما قدمناهُ منْ قبلُ من سيرةِ الهلالية، وعنترة، والأميرة ذات الهمة، وسيف بن ذى يزن، وغيرها.. وكل ذلك بهدفِ تَقْديمِ هذِه السِّير بشكلٍ عصْرِى للناشئين والشباب الصَّغير، من أجل إثارة اهتمامهم بهذا الفن العريق، الّذى تجاوزت روعةُ الملاحمَ الأوربية التى تمت صياغاتٌ عديدةٌ لها لمختلف الأعمار..

وكانت هذه السِّير عبارة عنْ نضالنا العربى ضد أقوامٍ رغبُوا فى الاعتداءِ عَلَى وطنِنَا وقومنا.. إن سيرةَ حمزة العرب كانت ردًّا عَلَى حمزةِ البهلوان، الفارسية الأصل، كما أنَّ عَلى الزيبق كشف عنْ براعةِ العربِ فى فن الحيلةِ والتخلص منَ المآزق، وتفَوقَ فيها الزيبقُ عَلَى نظيره العجمى.. وكانَ سيف بن ذى يزن فى مواجهة ما بين العَرب والأحباش الّذين احتلّوا اليمنَ، وطردوا منها، كما أنَّ الظاهرَ بيبرس كان رمزا لانتصار العَرَبِ على الصليبيين والمغُول..

لقد فَتحَ لنا د. عبد الحميد يونس، ود. سهير القلماوى، ود.عز الدين إسماعيل، ود. نبيلة إبراهيم، ود. أحمد مرسى، وصفوت كمال، وفاروق خورشيد، وإبراهيم شعراوى أوسع الأبوابِ مِن أجلِ أن

ندْخُلَ منـها إلى أدبنـا الشـعبى عامـة، وتتلمـذ علـى أيديـهم الكثـير، لكى لا نسقط فى هوةِ الإساءةِ إلى هـذا الأدب الرفيـع المسـتوى، وأبـدو الكثيرَ من الرضا والتشجيع لنا عَلَى ما قدمْنا مـن دراسـاتٍ حـولَ هـذا الأدب، وما صُغْناه منه عبر السنوات الماضيـة، ومـا بذلنـاه مـن جـهدٍ لنستقى منـه إبداعـاتٍ جديـدة، تمشـيا معـه، أو اعتراضـا عليـه، أو تفجيرا له.. لذلك أهديها إليهم راجيًا تقبلها.

وبودِّى أنْ أعترفَ أنى أقتربُ منَ الأدب الشعبى فى وَجـل وخـوفٍ مـن أسـاتذتى الأجـلاء، وهـم يُسـاندونى، لأنـهم يـرونَ أن نصوصَـهُ محفُوظـةً للتـاريخ، وللدراسـاتِ الأدبيـة والاجتماعيـة، لكنـها ليسـت (مقدسة)، وحينَ نَستوحيها لن يغَير منها ذلك شيئًا ولن نسىء إليـها، فمنْ نكون نَحنُ وقد غالبت الزمنَ عدة قرون وصمدَت له، وبقيتْ شـامخةً، ونَحنُ مهمَا بذلنا منْ جُهدٍ فلن نطاولهَا قامةً، وكل ما نفعلُه أنْ نسـعى إلى نبعِهَا الفياض، نَملأُ منـها بعـضَ أكـواب نَـأمل أن تكـون سـائغةً للشاربين.. إننا نقترب منها، ونَحنُ رافعُو الأيـدى إلى الجبـاة، تحيـة لها، ولحفَّاظِها ورواتهَا عَلى الربابةِ، وإعـادة طباعتِـهَا ذخـرًا، وكـنزًا للأجيال المقبلَةِ.

عبد التواب يوسف

obeikandl.com

– ١ –

دَقَتْ طُبولُ الحربِ النحاسِيَّةِ، واهتَزَّ كُلُّ ما فى اليَمن.. وكانَ الملِكُ حَسّانُ اليعَابِى يجتمعُ فى هَذِه اللَّحْظَة مَعَ بَعْض مِنْ وُزَرائِه، وفزعَ وَزِيرُ الزرْع والسُّدُود والخضْرة، وارتفعَ صوْتُه عَلَى هذِه الدقاتِ العَاليةِ..

– هَلْ مِنْ حَرْب جديدة يا مولاَى؟

– نعَم.. أنت تسمع طبولهَا النحاسيَّة التى يدقُّهَا عشرة مِن العَبيد!

– مَا نَكادُ ننتَهِى مِنْ حرْبٍ حَتَّى نبدَأ أخْرى؟

– أريدُ أنْ أحكمَ العَالمَ بحكْمَتِى.

– الأمرُ لَكَ يا سَيِّدِى..

– وأرَغبُ فى أنْ تَسيرَ سِيرتى فى كلِّ ممَالِكِ الدُّنيا..

– كُل الدُّنْيَا تَعرِفُك وترهبُكَ يا مولاَى..

– أريدُ أن أصِلَ فى هَذِه المرَّةِ إلى حُدُود الرُّوم.

– الرُّوم؟! إنَّ أرْضَهُم بعْدَ بلادِ الشام..

– نعَم، لِذلك سأغزُو ربيعة ومُرَّة؟

– إنهم عربٌ بنِى قَيْس..

– أعرفُ..

obeikan.com

قَالَ الوزيرُ الهَادِى وهُوَ يُغادِرُ المكانَ..

– ما الَّذى يُغرينا نَحـنُ العـرَبَ بعضُنَـا ببعْـض؟! نُريـدُ للسَّـلاَم أن يمتد بيْنَنَا وبيْن أهلِنَا فى الشمالِ لنتنعَمَ بالزرْعِ والخُضْرةِ؟

لَمْ يسمعْه التبعُ حسَّـانَ - كَـانَ هَـذا لَقبـه الملكى مثـل كسْـرى فـى بلادِ الفُـرس، وقيْصـر الـرُّوم، وفرعَـوْن مِصْـر. لقْـد كـانَ يُلقـى بـأوامره إلى أمـير الجيـوش بـأن يَزحـفَ بقواتـهِ الكثيفـة، ويجتـاز الجزيـرَةَ العربية، ويجتاحَ بلادَ الشام مدينة الزَّير سَالم إلى تُخُومِ أرضِ الرُّوم فـى آسيا الصُّغرى، أو تركيا الآن..

قال التبعُ حسَّان..

– أريدُك أنْ تضمَّ الفرسـانَ مِـنْ كـلِّ أرض تمـرُّ بـهَا، وأن تلحقَـهمْ بجيشِكَ عَلَى أنْ يكونَ له: قلبُ.. هـو قلـبُ أسَـد، وتكـون لَـهُ ميْمَنـة وميْسَرة، ولنْ تواجهَك أيةُ متاعبِ، فإنَّ اسم (التبابعَـة) يمـلأ النفـوسَ بالخوفِ والفزَع، وسَوفَ تستسْلمُ لك المدنُ والقرَى أثناءَ زحفِكـم،وأريـدُ أن تردَ إلىَّ أخبارُ الانتصَارَات، واحدًا بعدَ الآخَر.. وعَليكَ أنْ ترسلَ إلىَّ الغنائم واحدَةً بعدَ الأخرى، وعِندمَـا يَستقرُّ بـكَ الحـالُ هُنـاكَ سَـوفَ أوافيكُمْ فـى تلـك البـلادِ الَّتِـى يقولُـون إنـهَا جنـةُ اللهِ فـى أرضِـه.. وإنْ كانت لا تُضـاهِى اليمـنَ بـالطبْع.. بمَـا اسْتقرَّ عليْـهِ رأيـى والآنَ، قُـمْ.. سِـرْ، تصحبُكـم رعَايـة التبـع (حَسَّـان اليمـانى)، وبِنِـى مُضَـر. قـام أميرُالجيوش، وانحنَى أمامَ مَلِيكه، ومَضى إلى حَيثُ تجمعتِ الجنُـود،

والفرسَان، وامتطى حصَانَهُ الأبيَض، وَوضع الريشةَ فى عمَامَتِه، وسَارَ عَلَى رأس جَحَافِله، يَقتلُ مَنْ يَعترضُ طريقَهُ، ويَنهبُ المدنَ والقُرى، لذلكَ كَانت القبائلُ تَهربُ إلى الصَّحَارى والجبال خوفًا منْ قوةِ الجيوش وسطْوَتها..

وعِندَمَا اقْتربَت الجيوشُ من عاصمةِ (بنى قيس) عَلم هؤلاَء بقدومِها، واجتمعَ الشقيقان ربيعَةُ ومُرَّة، ليَبْحثا أمرَ هَذا الغزو الرهِيب.. وكان مِنْ رأى (مُرَّة) أن يُهادِنُوا، هؤُلاءِ القادِمين، إذْ لا قدرةَ لهُم عَلَى محاربةِ جيشِ حسَّانَ اليمانى الذى كانَ قد وصَلَ إلى أرْضِهما، ولحقَ بجنودِهِ.. لكنَّ (ربيعة) العَنيفَ رَفضَ ذلك رفضًا باتًّا، وقررَّ أنْ يخوض حَربًا ضَروسًا ضدَّ الغُزاةِ، وكانَ أنْ لقِىَ هزيمةً مروِّعَةً، وفقدَ عرشَه وحيَاته، وخلَّف ابنه (كليب) يتيما، فى رعايةِ عَمِّه (مُرَّة) الَّذى رأى أنَّ الحربَ لنْ تجدِى ولنْ تفيدَ، وأنه خيرٌ لَه أنْ يُجارى حَسَّانَ اليمانى، الَّذى رضى عنه، وأقطعَه وقومه أرضَ لبنان وبيروت، وبعْلبَك، والبقاع.. شَريطةَ ألاَّ يتجمعُوا ويتآمروا، وسَاعتها لنْ يرْحمهُم التبعُ اليمانى حسان الَّذى صَار يَحكُم اليمنَ، والجزيرةَ، والشامَ والعِرَاق!

obeikandl.com

— ٢ —

قَدِمَ (كليب) لزيارة عمِّه (مُرَّة) وسألَه:

– ما العملُ يا عمَّاه؟ وإلى مَتَى يَستمرُّ سُكُوتنا؟

قَالَ (مُرَّةُ) : يا كليب، مَا فى يدنا غيرُ الصَّبر.

– هَو حيلةُ العَاجِزين!

– فلنعترِفْ بالعجْز..

– وأنسَى الثأرَ لأبى؟

– مَا مِنْ أحدٍ يُطالبُك بذلِك..

– لابدَّ لِى وأنْ أقاتلَ حسَّان اليمانى..

– وأنتَ علَى مَا أنتَ منْ ضعْف، وهوَ على ما هُو مِنْ قُوَّة؟

– لا تُلْقِ بنفسِكَ إلى التهلُكة..

– أنا غيرُ قادر عَلَى أن أرفعَ رأسِى بينَ النَّاس.

– مِنَ الأفضَل لك أنْ تبقَى رأسُك بيْنَ كتفيك، لتُفكرَ بهَا.. بدلاً من أن تطيرها سيوفُ التبعِ!

تنهدَ كُليب، عَقله يتقبلُ مَا يقولُ به عمه، وثورةُ الغضَبِ تجعلهُ لا يطيقُ هذا الَّذى يَسْمَعه.. وبعْدَ فترةِ صمْتٍ لمْ تَطلْ قالَ العم..

– عيونُ اليمانى ترصدُنَا، وتحيطُ بنا، وتَنقلُ إليه كلَّ مَا يَدورُ بيننا، والحكمةُ تنَاشِدنا أنْ نبقى على حياتِنا حَتَّى تُواتينا الفرصَةُ للانتقام، وأيضا لاستردَادِ مَا ضَاع..

عَقَّبَ كلَيْب: مَا ضاعَ بالقوةِ لا يَستردُ بغيْر القوةِ..

– وبالحيلةِ أيضًا، وكم هَزمت مِنْ بطشٍ وجبروت!

وعَادَ الصمتُ يُخيمُ عَلَى المكان، وما لَبثَ كُليب أنْ قَالَ:

– ومَاذا عَنْ (جليلة) يَا عمّاه؟

– هِيَ بخيْر.. ولَكَ أنْ تلْقاهَا إنْ شئتَ.

– لا أستطيعُ ذَلِكَ، وأنا عَلَى هذِه الحالةِ اليائسةِ.

– لا حياةَ مع اليأسِ ولا يأسَ مع الحياة..

– كُنَا نأملُ أن نتزوج قبْل أنْ ..

قَاطعَه (مُرة) فى حَسْمٍ: هل نَستطيعُ فى ظُروفِنَا أنْ نقيمَ أفراحًا يا كليب؟!

– كلُّ مَا نقدرُ عليْه أنْ نحاولَ نَفْضَ بعْضَ أحزانِنا..

– ضَع (الزمن) فى حساباتِك..

هَمَّ كليب بمغادرةِ المكان، ودعَاهُ عمُّه إلى أن يبقى لكَىْ يتنَاولَ طعـامَ الغذاءِ، لكنه اعتذَرَ ومضى مُنكسَ الرأس غيرَ قادر عَلَـى أن يُوسـع مِـنْ خُطاه، أو يَصلُبَ طوله، إذ تقوسَ ظهرُه، وسارَ وكأنه يَحمل منْ فوقـه أثقالاً وجبالاً.. وتركَ عَمَّه، والدمُوع تَطفرُ من عَينيه.. ودَخلـت جَليلـةُ بعْدَ قليل، وحَاول أن يَخْفى عنها دُموعَه، ولم يَستطعْ.. قَالت لَهُ..

– الدموعُ لا تُجدِى يا أبتاه.

– أعلم ذلِكَ يَقينًا يَا بُنيتى..

– نقلوا إلىَّ نبأ قُدومِ كُليب، لماذا انصرفَ سَرِيعًا؟

– سألته الصبرَ وهوَ لاَ يطيقه..

– لقد هدّه الحزنُ عَلَى وفاةِ أبيه.

– ومَعَ ذَلِك فَقد أشارَ إلى.. إلى زَوَاجِكُما!

– مَاذا؟! كَيف يُفكرُ فى شىءٍ منْ هَذَا القبيل؟

(هَل فَقدَ صَوابَهُ؟!).

– هوَ لم يُطالب بذلكَ، بـلْ لمْ يَجـد لَديْـه الشـجاعةَ لكـى يَلقـاك ويواجهك..

– لنْ ألومَه، إننى أقدرُ ظروفَه.. ولكننى لنْ أتزوجَه إذَا هُوَ لمْ يثأرْ لأبيه.

– إنَّ غدًا لنَاظره قَريب..

– هل آتيك بشىء منَ الطعامِ؟

– ليسَ لهُ فى فمى طعْم..

غادرتْ جَليلةُ أباهَا وهى تُخفى أسَاهَا ودُموعـهَا.. عَلـى الرغـمِ مـن أنها مَا كانت تَدرى بما تخفيه لَهَا الأيامُ وما كَـانت تَتوقـعُ المزيـدَ مـن الآلامِ.. لقد فقَد أبوهَا مجـدَه، وفَقـدَ أرضَـه، وفَقـدَ شـقيقَه.. هَـل مـن الممكن أنْ يكونَ هُناك المزيد؟!.. مَاذا بَقى لدَيْـه؟! هـل يتركُـه حسَّـانُ اليمانى لأحْزانِه وآلامِه، أم يتمادَى فى اذلاَله وإهانته؟!..

فلْينتظِرْ مَا تسْفِرُ عَنْهُ الأيام..

- ٣ -

استقرّ التبعُ حسّان اليمانى عَلَى عرشِ العربِ.. وكَانَ مطرزًا بـاللُّؤْلُؤ والياقوتِ، ويَقفُ من ورائه الحراسُ بسيُوفهم اللاّمعة، والخدم بمَراوحهم من ريشِ النعامِ، ويَجلسُ من أمامِه الحاشيةُ، والوزراءُ، وسألَهُم:

- لقَدْ خَللنا هَذِه الأرْض، ولم أسْمعْ منكُم أسماءَ نسَائِها الجميلاَت، الذكيّات..

بدأت الحاشية، واحدًا بعْد الآخر، يَذكُرُ اسمًا.. اسمًا إلى أن هتَفَ أحدُهم..

- أذكَى، وأجملَ، وأروعَ نساءِ هَذِه البلاد إنَّمَا هِىَ (جليلة) بنتُ (مُرَّة).

وهُنَا ارتفعتَ الأصواتُ تُؤكدُ مَا قَالَهُ، لَكنه أضافَ..

- غيرَ أنَّ جَليلةَ مخطوبةٌ لابنِ عمِهَا..

صَاحَ حسّانُ التبع:

- من يكون عمهَا هَذَا؟ وابنه؟

– عمها رَبيعةُ الَّذى أمرْتَ يا مولاَى بقَتْله..

أما ولده فاسمه كُليب!

عَقَّب المِلكُ: هذا لاَ يحولُ بيْنى وبينها.. أى شَرفٍ لبنى قَيْس أن تتزوجَ ابنتهم جليلة منْ ملك اليمن والجزيرةِ والشامِ والعراق.. أوفدوا إلى أبيها يُرسلُ بهَا إلينا..

تَبادلَ الحَاضرُون النظراتِ فى قَلق..

– لماذَا كُلَّ هَذا التَجبُّر؟.. لقد قَتلَ عمهَا، واستُولىَ عَلى بلادِه، ويُريدُ أن ينتزعَها منْ خَطيبها كليب.. أليس ذلِكَ كثيرا؟! كيفَ تتقبله جليلة زَوجًا، خاصةً وهى تَسمع أنَّ لَهُ الكثيراتِ؟.. لم يَستطع أحدٌ مِنْهم أنْ يقولَ هذا للتبعِ حَسَّان اليمانى.. الَّذى أصدرَ أوامرَه بأن يذهبَ وزيره نبهان مع عددٍ منَ الفرسَان إلى والدِها، ليبلغه بذلكَ الشرفِ الذى يريدُ الملك أن يضفيه علَيْه: أن يتزوجَ ابنته جليلة!

وَصلَ الوزيرُ إلى (مرْة) يَحملُ إليه رسالةَ حسَّان اليمانى وفَزعَ الرجلُ، وهَاهُوَ قد بَدأ يدَفعُ ثمنَ استسلاَمه.. فقد مملْكَتَه، وشَقِيقَهُ، وهَاهُو سيَفقدُ ابنتَه.. ثمَّ: مَاذا يَقولَ لابن شقيقه: كُلَيْب خَطيب جَليلة ؟!..

اضطَرب (مُرَّة) ولمْ يعْرف كيفَ يرَد عَلَى الطاغيةِ حَسَّان اليمَانى.. ليسَ فى يَدِه أنْ يَرفضَ أوامِرَه.. كمَا أنه لا يستطيع أنْ يسوقَ إليه

ابنتَه الجميلةَ الذكيةَ: جليلةَ، ليتزوجَ منها، ويُذيقَهَا الذُّل والهوانَ والعذاب.. إنه بحاجة إلى وقتٍ يُفكرُ فيه للخروجِ مِنْ هَذا المأزَقِ، فَقالَ للوزير نبهان..

– أرجوكَ أنْ تُمهلنى بضعة أيام، لكى نُجهزَ (جليلةَ) حَتَّى تتزوجَ التبع حسَّان، إذ يَجبُ علينا أن نُرسلَ مَعَها الرياشَ، والثياب، والعطورَ، مما يليق بأميرةٍ سوْفَ تتزوج مِنَ التّبع ملك العرب حسَّان اليمانى!

أمهله الوزيرُ ثلاثةَ أيامٍ، لا أكثر..

وعَلَى الفور بَدأ مرةً مشاوراته.. أبلغَ ابنته التى نَزل عليها الخبرُ كالصَّاعِقة.. إنها تُريدُ ابن عمها، لتخفِفَ عنه بعْد أن فقَدَ أبَاه، ولا ترْضَى لنفسها أن تكون واحدة منْ جوَارى التبع حسَّان اليمانى، وهى ابنة سيد قومها.. أما كليب فقد ثار ثورة عَارمة.. أما كفاه أن فَقدَ أباه، وأرضَه، ليُضيفَ إلى ذلك فَقْد خطيبته جليلة، ولقدْ أقسمَ أنه لن يتنازلَ عنها حتَّى لو فقد حيَاتَه.. ورأى كليب أن يستشيرَ ذلكَ الحكيم الزاهِد: نعمان.. وكان أبوه يَلجأ إليه فى الأزمَاتِ، والظروفِ الصَّعْبة فيشيرَ عَليه بالرأى الصَّائِب، ويَدله عَلَى الطريق السليم لمعالجةِ المشكلاتِ وحلِّها، والخروج منها بسلام وأمان.. وقَد استمعَ إليه نعمانُ، وهُوَ يُهدىء من ثائرته ويسأله التروِّى، والتفكير بعمق، وفى النهاية قال له..

– اسمعْ يا كليب.. أنا أرى أن الملك التبع حسَّان اليمانى قد وضـعَ لنفسِه نهايته، وأنه بطلبه هذا قَد ختـمَ حياتَـه، وبئـس المصـير.. بـل وحفر قبره بيدَيْه.

سَأله كليب: كيف؟!.. إنه فى أوج مجْدِه وانتصاره..

وضَع لهُ نعمانُ خِطةً بارعة..

– ٤ –

اجتمع (نعمان) مع مُرَّة، وابنته جليلة وكليب..

قال: ما طارَ طائرٌ وارتفع، إلا كمَا ارْتفعَ وقع..

وسَكت قليلاً، قبل أن يضيفَ..

– ما من مُستبد ظالم إلا ولَه نقطة ضَعْفٍ.. هَكذا قالت لنا الحكاياتُ القديمة: عن شمشون وعَنْ أخيل، الأول نَتذكر شعْرَه، والثانى كعبه..

وحَانَ الوقتُ لكى تَقومَ جَليلةُ بدور دَليلةٍ!

ابتسمَ (مُرة) فهو يَعرف نعمان وحكاياته، ويَعرفُ مَكرَه وخُبثه، لكن جَليلة لم تكنْ رَاغبةً فى سَماعِ المزيدِ، إنها مهددة بأن تُساقَ إلى حسَّان، كالجارية، وهى تُفضل الموتَ عَلَى الزَّواجِ مِنْ هَازم أبيها وقاتل عمِها، وهى تتوقعُ مِنْ نعمان أن يُوجزَ، فلا وقت لديْها للحكاياتِ والأسَاطيرِ، لذلك تعجلته قائلةً:

– نعمان، إنها ساعاتٌ وأصبحُ أمَةً وجَاريةً!

هَدَّأ نعمانُ مِنْ رَوعِهَا، وقَالَ:

– سَوفَ نَقومُ الآن بوَضْع خطـة ثلاثيـةٍ، تُجـهز عَلَى هـذَا الجبـار المغرور.. مطلوب مِنْك يا (مرة) أن تُجهِّزَ ابنتِك، عَلَى أن يكـونَ ضمـن جَهَازِهَا رجالٌ شدادٌ، قَادرين عَلـى التصـرف بمـهَارةٍ وذَكـاءٍ وسـرْعةٍ. سأله (مرة): وكيف سيَصِلُونَ إليْه؟!..

قَـالَ نعمـان: هَـذه مُـهمتى.. أمـا أنـت يَـا كليـب فـإننى سـأدَرِّبكَ عَلَـى شـيءٍ مـا أظنـك فكـرتَ فيـه أو خَطَـرَ لـك عَلَـى بـال، وأرجُـوكَ أنْ تكـونَ مُطِيعًـا معـى، ولا تجـادلنى فـى شـأنه لأننـى أراهُ السـبيلَ الوحيـدَ لإنقـاذِ جَليلـةَ مـنْ برائـنِ هـذَا الغـولِ المُسـمى: التبع اليمانى..

– إننى مُستعدٌ لأن أخوضَ الأهوال وأنْ..

– أعْرِفُ يَا كليب، لكن الكثرة تَغلبُ الشجاعة، وأنت ستكونَ فـى قلْبِ قصْرِ عَدوك..

– مَاذا؟

والتفت نعمان إلى جليلةَ، وقَالَ:

– مهمتك أصعب المهام.. عليك أن تكونى قـادِرةً عَلَـى أداءِ دَورِكِ، الَّذى يَتطلبُ منك أن تكونى مُرحبةً بهذَا الزوَاج، سَعيدةً به، وتحسين أنه شرفٌ كبيرٌ يضْفِيه عليك حسَّانُ اليمانى..

هَتفت: هل هَذَا مَعقولٌ يا نعمان؟

– هَذا هُوَ دَورُك، ومُهمتك، وأمامَنا وقتٌ قصيرٌ نُعِدُّ أنفسَنَا فيه لهذه الأمور الجَسِيمةِ، الّتى تَحتاجُ منَّا إلى أنْ نملكَ زمامَ أعصابنَا وأن نتَقنَ ما تتَطلبه منا الخطّة.. وأظْننى سَوفَ أرافقُ موكبَ العروس لكى أراقب كلّ شىءٍ، ومنَ الممكنِ أنْ أكونَ قَائِدًا لقافِلةِ الجمَال..

بدأت الاستعداداتُ عَلَى قدمٍ وساقٍ..

وانفردَ نُعمان مَعَ كُليبِ الشاب فى غرفةٍ مُقفلةٍ، لساعاتٍ طوال، وقدْ خرجَ كُليبٌ بعدَها عَلى هيئة لمْ يَتعرفُ عليه (مُرة) ولا (جليلةً) الأمرُ الذى جَعلَ نعمان يَهتفُ:

– هذِه أولَى خطَواتِ النجاح..

وجَاءَ النجارُون إلى القصرِ بأدوَاتهم، وراحُوا يَصنعون صناديق كبيرة الحجْمِ، سَمِيكةً.. بعضهَا يتكونُ مِنَ الداخل مِنْ طابقين..

وفُتحت مخازنُ الثياب، والحلى، ليمتلئ الطابق العلوى منَ الصناديق بأفخرِ الملابسِ، وأغلى حُلى، وأجمل العُطور، وأدوَاتِ الزينةِ..

وَخرجَ نُعمان إلى ساحةِ القصرِ، يَستعرضُ الرجالَ الأشداء، وأسْلحتهَم، وأحسَّ بكثيرٍ منَ الرضَا عنهم.. ثُم اختارَ الجمالَ التى ستحمل كلَّ هَذا، واطمأنَّ إلى قُدرتهَا عَلَى حمْل هَذه الصناديق الثقيلة..

وسرعَانَ ما مرت الأيام الثلاثة، وهى المهلةُ التى طلبها (مُـرة) لكـى يُجهزَ ابنته جليلة من أجل أنْ تزُفَّ إلى الملك حسَّان اليمانى..

ودَقَّت الطبُول، وارتفعَ صـوتُ النفـير مُعْلنـا انطـلاق الموكـبِ وكَـانَ بين المشاركين فيه: نعمان، وبين المودعـين (مُـرة) الـذى تمنـى لابنتـه عَوْدةً سَالمةً..

— ٥ —

كَان الملكُ التّبع حسّان اليمانى يَنتظرُ جليلةً عَلَى أحرّ من الجمر.. وعَلَى الجانبِ الآخر، كَانت هُناكَ الكَاهنةُ (حجْلاَن) العجوز، التى يَصْحبها الملكُ حسّان فى رحلاته وحُروبه، تجلسُ معَ ابنتها، الّتى سَألتها..

هل تظنين يا أماه أنَّ (مُرة) والد جَليلة سَيقبلُ زواجها منَ الملكِ حسّان؟!

ضحكت الأمُ وقَالتَ: إنه لا خيارَ لَه، وهى فرصة لها لكى تكونَ سيدة القصْرِ والآمرَة والنّاهيةُ فيه..

قالت الابنة: هذا كلامٌ قدْ يَصحُ معَ رجُل غيره، فقد خَبر الدُّنيا، وهُوَ يَعرفُ يقينًا أنَّ ابنته لن تزيدَ على أنْ تكون مجردَ جارية مع الرجل الّذى قَتَل عمهَا، والدَ خَطيبها، وخَلعَ أباهَا عَنْ عَرشِه واستولى عَلَى أرضه..

عقّبت الأم: قد يكونَ كل ذَلِك صحيحا، لكنَّ الملكَ حسّان مَا منْ أحدٍ يردُّ له طَلبًا..

غَادَرت الابنةُ أمَّهَا، وقد أشَاعت فى نفس الكَاهِنة القَلقَ، والشكَّ، فقدْ يدَبِّرُ (مرةَ) شيئًا يُقلت به منْ أوامرِ الملكِ حسَّان، لذلكَ راحَت تعيدُ حسابَاتها.. فقامت لتفرشَ الرملَ فوقَ منديلهَا، وتُحركُه بأصَابعها، وترسم مِنْ فوقه خُطوطًا ودَوَائرَ، وتركزُ أفكارها وبصرهَا فيه، فإذا بالرمال وقد تحوَّلَت إلى شاشة عَرض، مُنيرة مُثيرة، ترى فيها صُورًا مُجسَّمة مُتحركةً، تَبدُوا فى أول الأمرِ قَاتمةً، غَائمةً، مُضطربة، ورُويدًا رُوَيدًا تتضحُ معَالِمُهَا وتظهرُ تفاصيلُهَا الدَّقيقةُ، فتراهَا فِى سُهولَةٍ ويُسْر..

رأت الكَاهنةُ عَلَى شاشةِ الرمال مَنظرًا فَريدًا، ومَشهدًا عَجيبًا.. كَانَ ذلِك مَوكب جَليلة وهُو فى طريقه لقصر الملك التبع حسَّان اليمانى.. موكب لمْ ترهُ مِنْ قبلُ أوْ منْ بعْد أرض الشام.. كانت هى جالسةً فى هَودج، ضَخم، أنِيق، بَديع المنظر، وَقَد ارْتدَت ثِيابًا، مُطرزةً باللُّؤلؤ والمرجان، وفَاحَ فى أرجاءِ الهودجِ أريجٌ بالغُ الروْعةِ والجمال، وقد انسَدَلت عليه الستائرُ الحريريَّةُ المزرْكَشَة.. وكَانَ يَقودُ الجملَ المهرَّجُ البهْلوَان الشهير (قشمر بن غره) الذى يَرْتدِى ثوبًا مِنْ فِراءِ الثعالبِ، وجلْدِ الذئابِ، وينمُو عَلَى جَانبىْ وجْهه شعرٌ منْ ذُيول الكباش، وكانَ يَبدُو (عَبيطًا)، عليْه سماتُ البلاَهة والغَباء، يَركبُ - وهو يقودُ الجملَ - بعُود قصَبٍ يَرفعُ (زْعزُوعته) كَأنها سيفٌ بتَّارٌ، بينمَا تَدلَّى سيفٌ خَشبى إلى جَانبه.. ومنْ حول الجمل جَمعٌ منَ الحرس

الفرسَان.. يحيطُ بهم حملةُ الهدَايا، الَّتى وضعَتْ فى صَناديقَ ضَخمة، ثَقِيلة الوزن، تَتحرك بهَا الدَّوابُ فى صُعُوبةٍ شديدَة.. وفى مقدمةِ الموكبِ كَانَ الوزير نبهان يَسيرُ مَزهُوا مُختَالاً، لأنه حَقَقَ لسيده الملك التبع حسَّان اليمانى مَا كَان يَتمناه ويَتطلع إليه.. وكَانَ مِنْ دواعى فرحه وسروره أن جليلة تبدُو فرحة، مرحة مُبتهجةً، سَعيدة، تُضاحِك وَصيفَاتها فى الهوْدَج، مُعْلنةً عَن شعورهَا بالفخرِ والزَّهْو، لأنها سوفَ تزَفُّ إلى ملكِ العرب الَّذى تَرامَت أرضُه وبلادُه واتسعت..

ولا تدرى الكاهنُ العجوزُ (حجلان) ما الَّذى ذكرهَا ببيْتِ شعْرٍ عربى جَاهِلى، يَتحدثُ ويتسَاءَلُ: مال الجمال سيرها وئيدًا، أىَّ شىءٍ تَحملُ: جَنْدلاً - أى صخرا - أو حَديدًا؟.. ومع الصباحِ حكت لابنتها عَمَّا شَاهدَته عَلَى شَاشَةِ الرمَال، فأبدَت الأبنة دَهْشتها، خاصةً وأنَّ عينى الكاهِنةِ اخترقتَا الصناديق، وشاهدتا مَا فيها منْ رجَالٍ مُدجَّجينَ بالسِّلاحِ.. سارعَت الابنةُ تسألُها:

- هل ستُنبهينَ التبع حسَّان اليمانى بالأمْرِ؟

- لا..

ارتَسمتِ الدهشةُ عَلَى وجْهِ الابنةِ، وصَاحَتْ: لِماذا؟!

أجَابت العجوز إننى لنْ أشى بها.. لأننى أرى نجمتها فى صُعُود، وسأكتم أمرهَا، وأقفُ إلى جَانبها وجانب أهلى لأننى ضِقْتُ ذرعًا بالملك حسَّانِ، ونزوَاته، وجبرُوته، وأشفِقُ عَلَى هذه الجميلة جَليلة،

وعلى خطيبها الشاب (كليب) الّذى قتل حسّان أبـاه.. وأعـرفُ يقينـا أننى سوَفَ أتلقى منهُم جائزةً كبيرةً وهديةً ثمينةً لقاء موقِفِى هذا..

قامت العجـوزُ، وتسـلّلت إلى حيـث أنـاخَ الموكـبُ جِمَالَـهِ، ومـا أنْ لمحـهَا بنـو قيْـس - أهـل جليلـة - حَتَّـى فزعُـوا، لكنـها طمْأنتْـهم، وأعْلنت أنها ستخفِى مَا رأت، ما دَام العَسسُ والبصّاصُونَ لم يكتشـفوا أمـرَ الصنـاديق، فقدمـوا لهـا الهدايـا، ووعدُوهـا بـالمزيد إذا تحقـقَ لَهُم النجَاحُ.

- ٦ -

أثارت الصناديقُ شكوكَ رجال الدرك، حُماةَ حسَّان اليمانى.. كما لم يَحدثْ فى القصةِ الفرعُونية القديمة فَتحَ يافا، حينَ اختفى جنديان مسلحان فى (خرج)، كل منهما فى ناحيةٍ منه، فوق ظهْرِ الدَّابة.. وكما لم يشُكّ على بابا فى القدور الَّتى اختبأ فيها الأربعُون حرامى.

ومضَى الدركُ إلى الصنَاديق التى فى المقدِّمة، ولمْ تكنْ تحتوى غير الثيابِ والحليّ والعُطور، وانهَالوُا عليها تكسيرًا، ولمْ يجدُوا فيها شيئًا غيرَ هذَا، وعندها ارتفعَ صوتُ جليلة من فوقِ هَوْدجها، تَصرخُ، منْ بيْن أستار الهودج وهى تُمزقُ ثوبَهَا:

- النجدةَ.. النجدةَ.. يَا مليكى، يا زَوجى، يا حبيبى.. أنقِذْ ثيابى، وَحُلىَّ، وعُطورى من بيْن أيْدِى هذِه الوحُوش.. إنهم يَفزعُوننى.. ويزعجوننى ويكدِّرُون صفوى..

.. هل ترضَى هذا لمنْ جَاءتكَ طائِعةً، ملبيةً، لا تنتظرُ على يديْكَ غيرَ السَّعَادةِ؟

وصل صوتُ جليلةَ إلى أسماعِ الملكِ حسَّان فى قاعةِ العرش، فقام مُسرعًا إلى النافذةِ يَطلُ منها على الساحةِ من أمام القصْرِ، وهَتفَ فى

الدَّرَكِ أنْ يَكُفُّوا عنْ هَذَا الـذِى يصنعُونـه، ونـزل بنفْسـه مـن أجْـل أنْ يستقبلَ جَليلةً، ويصْحبهَا إلى الجناحِ الخاصِّ بها، وهـو يَرمُقُـها بيْـن حِينٍ وآخرَ، ويتطلَّعُ إلَى وجْهها الصبُوح الجميـل، وجِسْمها المَيَّاس الرقيقِ، وثيَابـها الأنيقَـةِ البديعـةِ، وقـدْ فَـاحَ منـها أريـجٌ طيـبٌ، أدارَ رأسَـه.. ولمحَ وهو يَخُطـو بـهَا ذَلِـك البـهلوَان المـهرج وأدهشَـه منظـرُه، فقالَت جليلة..

– هذا المضحك (قشمر) وسوْف يسرِّى عَنْك، ويجعلك تنسى الدنيـا وما فيها.. وقد صحبته إلى هنَا، طامِعةً فـى أنْ تقبـلَ بقـاءَه.. إنـه قـطٌّ أليفٌ، يحسِنُ الرقصَ.. و..

قَالَ حسَّان: عَلَى الرحْبِ والسَّعَة..

وكَانَ الحكيـم نَعمـان قـد نبـه إلى أن هُنـاكَ حلقـة مَعدنيـة، معلَّقـة عَلَـى بـابِ الملـكِ حسـان، تسقطُ فـوق الأعـدَاء حـين يدخلُـون إلى القصْـر، وتَصبـحُ لهـم قيُـودًا وأصفَـادا.. فأشـارَ إليـهـا (قشـمر) خائِفًا مُرتجفًا، فـأمرَ الملـكُ حسَّـانُ برفعـها، إذْ أنَّ القـادمين مُحِبُّـون، وأصدِقاءُ، وأعزاء..

دَخل الجميعُ إلى القصر، والملك حسان سـعيدٌ غايـة السعادةِ بـهذه الفتاة الرائعـة (جليلـة) ولَمْ يكـنْ قـدْ رأى مَـنْ هـى فـى جَمالهَـا بيْـنَ النسَاء، عَلَـى كـثرة مَـا التقـى، فـراحَ يمتدحـهَا وإذا بالبـهْلوانِ يَقـولُ بصَوْتٍ كَالصَّفِير..

– خُذ حذْرَك منها يا مولاى إذا ما غَنَّت..

ثم أطلقَ ضحكة هِسْتيرية.. سَادَ بعدهَا بعضُ الصمْتِ، وإذا بصوتٍ جليلة، يجلجلُ فى البهْو، ويتردّدُ صداهُ، وفتحَ حسّانُ اليمانى، وحاشيته، ووزرَاؤُه أفواهَهُم وعيُونهُم وآذانَهم، وراحُوا يتمايلُون طَرَبًا، ورقْصًا.. وفى مقدمتهم الملكُ، ومعه البهلَوان.. كَانتْ جليلةُ تُغرِّدُ بكَلماتٍ فيهَا الفرحةُ بلقاءِ التبع اليمانى، الَّذى دَوّخَ الأكاسِرَةَ والقياصرةَ.. ودَانت له كل الدنيا بالطاعةِ والولاَء.. ولم تَطل جَليلةُ، ومَالت عَلى الملكِ وهَمسَت:

– مَا كنتُ أحبُّ لأحدٍ أن يَسمعَنى سوَاك، لكنَّ اللقاءَ السعيدَ بك أطلق صوتى مِنْ أعمَاقى معبرًا عن الفرحةِ. أحنَى حسّانُ رأسَه وقال: ما أجملَكِ، وصوتَك، وكلماتك يا جليلة.. يا أميرة.. مَرحبًا وأهلاً بك.. ومضَى بها إلى الجناحِ الخاصِّ بها، وإذا بالبهلوان يتبعُهما، وعندمَا وصلُوا إلى غرفتِهَا، قال لَهُ الملِك:

– اغلقْ الباب..

وإذا به يغلقُه فى وجْه الجمِيع، ويبقَى معهما بالدَّاخل.. وراح يقومُ بحركاتٍ بَهلوَانية، إلى أنْ جلسَ الملكُ وجليلة إلى مقعديْن مُتجاورَيْن، فأقعى المهرجُ عند أقدامهم، فقالَ لَهُ الملك:

هـذا الّـذى ترْتديـه لا يَليـق.. دَع هَـذا السـيفَ الخشـبىَّ وقـالتْ جليلةُ: مَا رأيته إلا علَى هذِه الصورة.. ليته يَـا مـولاَى يَرتـدِى درعَـك وسَيْفَك وخُوذَتَك..

أمرهُ الملكُ حسَّان بأن يدخلَ إلى غُرفةٍ جَانبية، ويَفعل مَا طلبتْه منـهُ سيدته، فمضَى عنـهمَا لحظـاتٍ قصيرةٍ، كَـانَ الرجـالُ المدججُـون بالسلاحِ قد غادرُوا الصناديقَ وأحَاطُوا بالملكِ.. ثم دَخـلَ قشـمر، الّـذى لم يكنْ غيرَ كليب مُتنكرا وطَعنَ الملكَ حسَّان ليخرَّ صَرِيعًا.. لقد انتقمَ كليب لأبيه!

- ٧ -

تمَّ كلُّ شيء في يُسرٍ وسُهولةٍ، ولم يتَوقع كُليب ذلك، ودَارت معركةٌ قصيرةٌ ما بين رجاله الَّذين سبقَ لَه أن اختارهم من بين الصناديدِ ومَا بيْن حَرس حسَّان اليمانى، الَّذين فَت فى عَضدهم مصرع مليكهم، فتَساقطُوا تحتَ وطْأَةِ السُّيوفِ والحِرَاب.. وخلعَت عنهم ثيابهم، وارتداهَا المرافقُون لمَوْكبِ جليلة، وكان نُعمانُ قدْ أناخ جمَالَهُ فى سَاحةِ القصْرِ، ومِنْ خارجه أهل البلدةِ مَا زالُوا مَشغولين بالأفراح، ولم يدروا بما حدَثَ، ولم يعلموا بما جَرى.. وسُرعَان ما أعدَّ نعمانُ جمال القافلة ليتسلل إليها كليب ورجالُه فى ثيابِ حرس التبع اليمانى.. حَتَّى جليلة نَفَسها ارتدَتْ نفسَ الملابس، وأغلقُوا أبوابَ القصرِ بَابًا بعدَ بابٍ، وقدْ أصبح خاليًا إلا منْ جسَدِ الملك الَّذى أجلسوه ميتا على عَرْشه، واطمأنُّوا إلى أنَّ الحرسَ كلَّه قَدْ لَقى مصْرعه، ومضت القافلةُ كلُّها بسُرعة، تريدُ أنْ تهربَ قبل أن تكتشفَ المدينةُ وأهلُها مَا حدثَ وما جَرَى.. إنَّ أمامَهُم ليلةً كاملةً فى مقدُورهم خلالهَا أنْ يقطعُوا مسافةً طويلةً دونَ أنْ يَفطن آلَ حسان إلى أنَّ مليكهم - بدَلاً من أن يدخلَ بعروسِه، ويَدخل دُنيا جَديدَة - قدْ ودَّعَ الحياةَ.

وكان كليب ورجَالُه أثناءَ تركهم السَّاحةَ القائمةَ أمامَ القصرِ يناشدُونَ الجماهيرَ أنْ تغادرَ المكانَ مشكورةً.. فقدْ أدَّت ما عليها تجاهَ ملكِهَا، ومنَ الضَّرُورى أنْ تنْصرفَ.. ووَزعَ عليها كليب بَعضًا مما نَهَبَهُ من القصرِ عَلَى أنها هدايَا مِنْ حسان لهم فى هذه المناسبةِ السَّعيدة.. واستجاب الناسُ، خاصةً والقافلةُ تتجه هى الأخرى لكى تمضى إلى الحظائرِ، كما ظَنُّوا.. لكنها مَضَت متفرِّقَة، لكى تلتقى بعْد قليل عنْد الأبوَابِ الجنُوبيةِ للمدينَةِ، وقدْ فُتحَتْ لها الأبَوابُ لتُغَادِر، بَعْدَ أن أدَّت مهمتها وحملَت العروسَ إلى مَوْلاهم التبع..

ونامت المدِينةُ فى صمتٍ وهُدوءٍ..

ولم تستيقظ إلا قربَ ظهرِ اليومِ التالى، وقدْ ألَمَّت بأهلها دهشةٌ كبيرةٌ لذلِكَ السُّكون الذِى سَادَ القصرَ، المغلقة أبوابه، وظنوا أنَّ الملكَ قدْ أمرَ بذلكَ، لكنَّ الشك بدأ يُساورُ البعضَ عِندمَا لم يَلمحُوا أحدًا يخرج منَ القصرِ أوْ يدْخلُ إليْه، خاصةً وقد أقبلَ الوزرَاء ليقدموا التهنئةَ، وكانت مفاجأة مُذهِلة للجميع أنهم اكتشفُوا أنَّ كلَّ مَنْ بالقصرِ قدْ لقى مصْرَعه.. وساد هَرَج ومَرَج، واضطربت الأُمُور، ولم يعُد هُناكَ مَنْ يستطيع أنْ يمسكَ بزمَامها، وراح القادة والزعماءُ يَبحثون لأنفُسِهم عنْ مكان ومكانةٍ لَدَى منْ سيتمكنُ مِنْ فرض سُلطانِه بين بيْن المتصارعين عَلَى العَرْش، وإن كانَ الصحصاح - ابن حسان اليمانى - هُوَ أبرزُ المرشحين ليَخلفَ أباه.. ولقد شَغَل الجميعُ بهذه الأمور عَنِ

التفكير فى اللّحاق بموكب جليلةِ.. وكانت هَذه فرْصة أخرى لها لكى تفلتَ بما فعَلَت، وعندمَا بدأت عَمليةُ اقتفاءِ الأثر، كَانَ من الصعب اللّحاق بها وبموكبها..

وانشغلَ الناسُ بدفن الملِك، وحرسه، ولم يكُنْ هُناك مَنْ بقى عَلَى قيدِ الحياةِ فى قصرِ الموتِ ليحكى مَا حدث، وراحَ الجميعُ يَضربُونَ أسداسًا فى أخماس، غير قادرين عَلى معرفةِ الحقيقة، وإن كانَ منَ الواضِح أنَّ مؤامرةً قَدْ حَاكها بنُو مرة، لكى ينتقمُوا مِنْ حسَّان الذِى استوْلَى عَلَى بلاَدهم وأرضِهم، وقتلَ رَبيعة حينما رغب فى تحديه، ونفى مُرة بعيدًا عنْ دمشق..

وكَانت جليلةُ أسْعدَ النَاس بمَا جرى وبما حَدثَ فقد أفلتَت من جَبروت التبع اليمانى، وأخذَ ابنُ عمها الثأر، وهاهى تعودُ حرةً منتصرةً، لا يحولُ شىء بينها وبيْن أنْ تزفَّ إلى كُليب، بعْد أن يُعْلنُوه مَلكا.. وكان كليب لا يقل عنها فرَحًا وابتهاجًا، فقدْ حققَ أمله بأسرع مما توقَّع وهاهو يَرجع مرْفُوعَ الرأس، مَوفورَ الكرامةِ.. أما نعمان فقد امتلأ بالفرحِ والفخرِ، فلا أقل مِنْ منصبِ الوزير يَنتظرهُ جزاءُ وفَاقا لنجاحِ تدبيره، وتوفيقه فى خطَّتِه الجُهنَّمِيَّة..

- ٨ -

عَادَ موكبُ جليلةِ، عَلَى نفْسِ الطريق الَّذى جَاءَ منه.. كَانت سعيدةً لأنها تَخلصت، وشاركت فى إراحة الناس مِنْ حسَّان اليمانى الطَّاغية، وإعَانةِ خَطيبها على تنفيذِ الخطَّة التى وضعها لهُمْ الحكيمُ نعمانُ.. وكانَ كليب قدْ خلعَ عنه ثيابَ المهرج، وارتدَى عَبَاءة الحكْم، وسَارعَ يبعثُ إلى عمه (مرة) بالأخبَار، وقد استقبلَهُم عِنْدَ بابِ المدينة، مُهنئًا بذلِكَ الانتصار، مُبَاركًا زواج جَليلة منْ كُليب، فأقامُوا الأفراحَ واللَّيالى الملاح..

وكَانت جَليلة تتمنَى أنْ يسير زوجُها بيْنَ الناس سيرةً حسنَةً وقد رأى ما فعلَه ذلك المستبدُّ حسَّان اليمانى بهم، وكم فرحُوا عندمَا تخلصُوا منه، لكنَّ الأمورَ لم تكنْ كما تمنَّتْ وأرادتَ، إذْ تغطْرسَ كليب، وأصبح فى بشاعة التبع، بل وأكثر، وكمْ نصَحه عمُّه، ونصحْته جَليلَة بأن يكفَّ عَن الظلْم، ويَشيعَ العدْلَ، غيرَ أنه لم يَنتصحْ، بل تَمادَى، وكَرهَه النَاسُ كُرهًا شديدًا، وضَاقت به جليلة، وتَربصَ به الكثيرُون يريدُون أنْ يتخلَّصُوا منه..

استدعت جَليلةُ إليها الكاهِنةَ العَجوزَ (حجلان)، من أجل أن تُكافِئَهَا عَلَى صَمتها عنْ إبلاغِ حسَّان اليمانى بمَا كَان يُدبِّرُ له، ولكى

تستطلع لهَا مسْتقبلها، ومصيرَهَا مع هَذا الزوج المسْتبد، والَّذى يريدُ الجميعُ أنْ يستريحُوا منه.. وفَرَشَت العجوز رملهَا فوق منديلها ورَاحتْ تُخططُ مِن فَوقِهِ، وهى تُركِّزُ النظرَ إليه، وظلت صَامتةً لفتْرةٍ طَالتْ.. واضطرتْ جَليلةُ إلى أنْ تسألهَا..

– مَاذا تخفى الأيامُ لزوْجى كليب؟!

– تَخفى شرًّا مُستطيرا..

– مَنْ ذلِكَ الَّذى يَسعَى إليه بالشرِّ؟

– إننى أرى أنَّ قتلَه لنْ ينهى متاعبَ القَوْم..

– مَاذا؟! إنهم يَرَوْنَ فيه السَّبب الأولَ والأخيرَ فى حياةِ البؤس التى يحْيُونهَا..

طَوَت السيدةُ العجوزَ منديلَها، وصرّتهُ على رمَالِها، وَسَألتْ جليلة..

– مَا الَّذى يَفعلهُ لكى يكرهُهُ الجميع؟

أجابت جليلة: إنَّه ظلُومٌ جهُول، أرعَن جَشِع، لذلكَ لا يطيقُونَه..

– ألمْ يخلصهُم من التبع اليمانى؟

– نعم، ليقعُوا بيْن يديْه هُوَ.. تصوَّرى أنه أُعجب بقُبَّرةٍ وَديعَةٍ ترقدُ فوقَ بيضها، وإذا به يعلنُ أنه وضعَهَا تحتَ حمايته.. وعندمَا خرجَت

أفراخهَا كَانَ النَاسُ يخافُون السيرَ فى المناطِق الَّتى تَطيرُ فيها خشية أنْ يَتهمَهُم زبانيتُهُ بالاعتداءِ عليها أو إيذائِهَا، وبقيت مساحاتٌ شاسعةٌ من الأرض بلاَ مُزارعين.. مما اضطرّ معه شابٌ شجاعٌ إلى تَحطيم عشها، فعاقبَ عبيدَه لأنهم لمْ يَعرفُوا هَذَا الشابُ ويُسلِّمُوه إليه ليَقْتُلَه!

أبدت الكَاهنةُ دهْشتهَا مما يفْعَلُه كُليب، وواصلتْ جَليلةُ حكاياتِه المُذهِلةِ، فأضافت:

– وتكرَّرَ هذا مع كليبة هَزيلة.. وجميل أنْ يكونَ الإنسانُ رفيقًا بالحيوان الأعْجم، ولكنَّ عليْه أن يكونَ أكثرَ عَطْفًا على أخيه الإنسَان.. وقد تمكَّنَ ذَلكَ الشَّابُ من التخلُّص منَ الكليبةِ وإراحة الناس منْهَا.. وللمرةِ الثانية لم يتعرفُوا عَلَى ذلكَ الشَاب، وعُوقبُوا علَى ذلكَ وأُودِعُوا السُّجُون.

قالت العرَّافة: لقد رأيتُ ملامحَه على شَاشةِ الرمال، ولستُ أدْرى لماذَا أجدُ فيه شبهًا منْك..

همَست جَليلة: أرجُوك، لاَ تبلِّغِي أحدًا بهذَا..

– لنْ أنطقَ بكلمةٍ، لكنْ تُحدِّثُنِى نَفْسِى أنَّ قاتل كليبٍ سيكُونُ هُناكَ مَنْ يثأرُ له.. ومنْ قَتَلَ يُقْتلُ ولوْ بعْد حِين.

ودَعَت جَليلةُ الكاهنة العجوزَ، وهى تَقولُ:

– هلْ كُتبَ عَلَيْنَا أنْ نعيشَ حياةً قلِقة، مضطربةً، تمتلئُ بـأحْدَاثِ قَتْلٍ جِسَامٍ؟! لماذا لا نَحيَا فى وئَامٍ وسَلامٍ؟ يأتينا ظـالمٌ إثـرَ ظـالمٍ، مـا أن تَقتلعَ مُستبدًا حتَّى ينبُت آخرُ أشدُّ وَأقسى.. إنَّنى بدأتُ أشُـكُّ فـى أى رجُلٍ عاقِلٍ يُحَاولُ بكُلِّ ما يَسْـتطيعُ أنْ يُسَـايسَ الحيـاةَ والنَّـاس، ويقْنعَ بالقَليل..

قَالت الكاهنة وهِىَ تُغادرُ المكَانَ حَاملةً مُكَافأتها:

– قُولى لأخِيك ألاَّ يقَع فى شباكِ الإغْرَاءِ!

obeikandl.com

– ٩ –

مضَت الكاهنةُ، وجَلسَت (جليلةُ) وحدَها تُفكرُ، وقد وَضَعتْ رأسَها عَلَى كفها، وراَحَت الخواطرُ تَلْهَثُ فِي عقْلها..

– ترى هل تحدثت الرمالُ حقًّا للعجوز العرَّافةِ، أم أنهَا سمعَت ما يَتناقلُه الناسُ عنْ شقيقها جَسَّاس؟!

كَانَ جسَّاسُ أخوها شَابًّا فَتيًّا، شُجاعًا، وكَانَ مِنْ بين الَّذين اختفُوا فى الصنَاديق الَّتى رافقتها فى رحْلتها إلى دمشقَ، حَيثُ كان يقيمُ التبعُ اليمانى حسَّان، وشاركَ فى حِصَاره، ومهَّد للصُناديدِ مِنْ بنى مرة للتخلص منْه علَى يَدِ كُليب.. وَفِيمَا يرَى جَسَّاس، ويتحدَّث به إلى أختِه أنهمْ لمْ يتخلَّصُوا مِنْ ظالمٍ مُستبد، ليَأتى مِنْ بعْده منْ هوَ أكثرُ منه استبدادًا وظُلمًا.. وكانَ يعْنى بذلك زوجَها كليب، وتحاولُ جَليلةُ أن تُخففَ منْ سُخْط جسَّاس وغضبه، إذ كانت تخشى أنْ يعلمَ بذلكَ كليب، فَيُسلِّطَ عليْه زبَانِيته.. قَالت لنفسها:

– تراهَا طبيعيةً فى نفُوس البشر أنْ يُصبحَ الحاكمُ طاغيةً فى اللَّحظةِ الَّتى يتَسلمُ فيها سلْطَانه؟! أمَا منْ سبيل لأنْ يَحصلُ الناسُ عَلَى حَقِّهم فى أنْ يُعَبِّرُوا عنْ أنفسِهم دون أنْ تَضيقَ بهم عظمة

الحاكم؟ هَلْ منَ المُفترض أن يكونَ هُوَ عَلَى صَواب دائمًا؟ أليسَ من الأفضل لـه أنْ يُراجعُوه إنْ هو أخْطَأ لكى يصلحَ منْ أمره؟ أليسَ الرجُوعُ إلى الحق خيْرًا مِنَ التمادِى فِى الباطِل؟

وقَطعَ عليها حبْلَ أفكارهَا دخُولُ كليب عليها كالعاصِفة، وقدْ رَاحَ يَخلعُ عنه لباسَ الحرب، ورَاحَ يَقذفُ بسيُوفِهِ وجِرَابه هُنَا وهُنَاك، وهى تَقطرُ دَمًا، بينمَا رَاحَ يهدِّدُ صارخا..

– لقدْ أتيْتُ عَليْهِمْ جَميعًا، وأحرقتُ خيامهم، ولنْ تقوم لهم بعدَ اليومِ قَائمة، وهكذَا سيكونُ مصيرُ كل مَنْ تَسوّلُ له نفسُه أنْ يعْصى لى أمرًا!

سكتت، ولمْ تَسأله مَنْ يكُونُون، فقدْ ضَاقتْ بأحَاديث الحروبِ والدمَاءِ، وتمنَّت لوْ أنَّ زوجها أعْطى جَانبا مِن اهتمامِهِ للزرْعِ والضرْعِ، ورَغبَت فى أن تكتسى الأرض بالخضرةِ، وأنْ تمتلئَ المرَاعى بالأغْنام، وأنْ تَحتشدَ الأسواقُ بالبضائعِ، يَحملها إليها التجارُ، ويقْبلُ عليهَا المُشْترُون.. إنها يومًا بعْدَ يومٍ تَنحازُ إلى أفكار أبيها، ورَغْبته فى البناء والتعميرِ، وتضيقُ بهذا الَّذِى يَفعلهُ زَوجُهَا، وَيقُوله، إذْ لاَ حَديثَ له إلاَّ عَنِ المعاركِ والقتال، وقدْ عَافَت نفسَها ما يصنَعُه، وما يتكلَّمُ فِيه.. وارتفعَ صَوته منْ جديدٍ..

– مَالَك صَامِتة، لا تقُولين شيْئًا..

– ليسَ عندِى ما أقولُه..

– حَدِّثينى عما يصِلُك مِنْ كلامٍ يتقـوَّلُ بـه النـاسُ عَلـىَّ، وضـدىَ.. انقُلى أخْبَارَ القَبَائِلِ التى تُحاولُ رَفْعَ رَايَةَ العِصْيَان..

– تَعلمُ أنى أضِيقُ بهذِه الأمُور منذُ رأيتُ دمـاءَ حسَّـان تَسـيلُ عَلَـى الأرْض، عَلَى الرغم من أنهَا حَرَّرَتْنى منه.. وكمْ تسَاءَلت: ألم يكنْ مِـنَ الخيرِ لهُ ألاَّ يَسْعَى للزواجِ مِنِّى، وأنا مِنَ مُعسْكرِ أعدائه؟!..

– لقدْ أورَدَه ذلكَ موردَ الهلاكِ ولقى جزَاءَه.. الَّذى يَستحقُّه.. لأنـه كَان ظَلُومًا غَشُومًا..

– وهل اعتبرَ الآخرُون بمَصِيره؟

صَرخَ فيها: مَاذا تَقصُدِين؟ هل تردِّدِيـنَ مـا يقولُـه النـاسُ هُنَـا؟!.. للحكْمِ سَطْوَته التى لا تحميها إلا السيُوف والرِّمَاح؟

– ألا يمكنُ أنْ تحميه المحبَّةُ والمَوَدةُ؟

مطَّ شَفتيه سَاخِرًا هازئًا، وقَالَ:

– المحبَّـة؟ المـودَّةُ؟ كيـف والجميـعُ طَـامِعُون فـى منْصِبـه؟ قَـالت: الجميع؟

– نَعم، منْ ذَا الَّذى لا يريد أنْ يحكمَ ويُسيْطر؟

– مَاذَا ترى فى أبِى؟

– أراهُ ارتضَى لنفْسِه الضعْفَ والاستَكَانةَ!

– بل سَمَا بنفْسِه وارتفعَ بها عَنِ الصَّغائر.

– وهل (الحُكم) و (السُّلطة) مِنَ الصَّغائر؟

– قدْ تكونُ أحيانًا مِنَ (الكبائر)..

ألقى عليها نظرة ضيقٍ، وَغَادرَها إلى (حَرِيمه)..

- ١٠ -

تنفسَت جَليلةُ الصَعَداء، وشعُرَت بالارْتياح عندمَا مَضَى عَنْها، وعَادَت تُفكرُ في شقيقِهَا جسَّاس، والشبابُ الذِينَ يحيطُونَ به، ويتطلَّعُون إليْه بَطلاً مُنقِذًا.. كم تشفِق عليْه منَ المصيرِ الذى يَنتظِره: إنه ثائرٌ ضدَّ كُلَيب، وإذا ما استطاعَ هَذَا أنْ يمسِك به، فلنْ يبْقى عَليه.. ولوْ أنه تمكنَ هُوَ مِنْ كليب، فإنَّ أخَاهُ الزيرَ سَالم سيكونُ له بالمرصَاد.. وزفرَت قائلةً..

- يا لمصيرِكَ المحْتوم يا جسَّاس! حتَّى الكاهِنَة تَسألُنى أنْ أنبهَكَ لكى لا تسَقطَ فى شِباكِ الإغْراء!

وكانت شباكُ الإغراءِ تنَسجُ مِنْ حَولِهِ دُونَ أنْ يَدرى.. ذَلِك أنَّ شقيقة حسان اليمانى عِنْدمَا علمَت بمصْرعه جُنَّ جُنُونها، وامتطت ناقَتَها البسُوسَ، وراحت تَقطعُ بها الفيافِى والقِفَارَ فى طريقِهَا إلى أرض الشَّام، وقد أقْسَمت بكل المقدَّسَاتِ أن تنتقمَ لأخيها مِنْ كُلَيب.. ومَا كانت تَدْرى أنَّ هَذِه الناقةَ الَّتى تركبُهَا ستكونُ لها حكايةٌ طويلةٌ يَحفظهَا التاريخُ، بل ربما أصبحت أشهرَ نَاقةٍ عَرفهَا عَلَى مدَى امتدادِ سنَوَاته..

كانت سعادُ - أخت حسَّان اليمانى طيلة الطريق تتصورُ أنَّ النَاسَ لابد وأنْ يَرَوْا فى كليب بطلاً، لأنَّه خلصهُم مِنَ الطاغية، لكنها

اكتشفت أنه صار بغيضا كريها، ووصل إلى سمعها ما يتناقلونه عنه، وما يتحدثون به عن بطلهم وأملهم جساس بن مرة شقيق جليلة، فبادرت بالسعى إليه، والتعرف عليه.. وقد اجتذبته بفصاحتها وشعرها، فسألها: من تكون؟

أجابت: إننى من قوم كانوا أعزة كراما، لكن الدهر غدر بنا، ودارت علينا الأيام، لنصبح كالأيتام على موائد اللئام، لذلك لجأت إليك يا جساس بن مرة، من أجل أن تحمينى وناقتى (البسوس) من غدر الزمان، وعدوان الأشرار، فأنت ابن (مرة) الشيخ الجليل، وشقيق جليلة الجميلة، ولن أجد فى الوجود من ألجأ إليه سواك!

تأثر جساس بكلماتها، وشعر بالعطف عليها، وهو أصلا قد ضاق ذرعا، هو وجليلة بزوجها كليب، وهاهى هذه المرأة توغر صدره ضده، فقال لها..

- تعال لترينى ناقتك البسوس..

خرجا إليها، ودارا حولها، وإذا به يشم منها رائحة زكية، هى خليط من المسك والعنبر والصندل والطيب، وكانت ترقد قرب قطيع جماله، وقالت له..

- هاهى البسوس التى أهاجر من أجلها من بلد لبلدٍ.

سألها فى دهشة: لماذا؟ ما السبب فى ذلك؟

– مَا منْ حاكمٍ ألوذُ به وأطلبُ الحماية لَها، إلا ويَطلبُ منى هذه الناقةِ: هديةً، أو شراءَ بأى ثمن، وعِندمَا أرفضُ يُضايقنى ويرهقنى، حَتَّى أضطر إلى تركِ بلادِهِ والبحثُ عنْ مكانٍ آخرَ، فهل أجدُ عِندكَ الحِمايةَ لى والرِّعايةَ لها؟

قَالَ جسَّاسُ: أنتَ وناقتك وخدمك ستلقُون عندِى الأمانَ والاطمئنان، وتعيشونَ فى رضا وإسْعَاد، يا سعاد!

وهكذا أقامَت عِندَه شَهرين، كانت تَحاولَ خِلالَهما أن تُثيرَ الفتنَ بينَ القبائلِ وتَنشرُ البُغْضَ فيما بينها ضدَّ كليب، وتثيرُ الأحقاد مَا بين بنى بكر، وما بين بنى ربيعة، كما كانت تروى قصصًا أشبه بالأساطِيرِ حولَ ناقتِها الهزيلة العَجفَاءِ، تَتحدثُ عَن روعتِهَا، وعَظمتها، حَتَّى لقد تناقَلَ الناسُ عنها قَولَها..

.. هذِه الناقةُ مباركةٌ، فهىَ منْ نسلِ نَاقةِ سيدنَا صالح عليه السلام، وإنَّ عَرقها مسْكٌ، وفضلاتها عنبرٌ..

وهَذا هُوَ ما جَعلَ الحكامَ والأمراءَ يَطمعُونَ فيها ويتطلَّعُون إليها.. قبل أنْ أصلَ بها إليكم، لأجدَ الأمان والاطمئنان..

وقد تَبادلت جليلة وجسَّاسُ أخوها أحاديثَ طويلة عَن (سعاد) وناقتها، وحولَ كليْب وظلْمه وقسْوته، وكانَتْ دائمًا تَخشَى تلكَ

النبوءَة الَّتى تقولُ إنَّ أخَاه الشاب الفتى الزير سالم سَوفَ ينتقمُ ممَّنْ تَمتدُّ يَدهُ بالسوء إلى كُليب زوجها، لذلك كانت دائما تُحاولُ أنْ تُرجئ التخلصُ منه والإجهاز عليه، رغم اعترافها بسُوء خُلقِهِ وفَسَادِ تَصرفِهِ، لكنَّ صَاحبةَ البسُوس كَانت تقرنُ القول بالعمل، لِذلكَ وزعتِ السلاحَ سرًّا عَلَى الشبابِ الَّذى انضوَى تحتَ لواء جسَّاس، وراحُوا يَتدربُونَ عَلَى استخدامِه انتظارًا لساعةِ الصفرِ الَّتى يُحددُهَا لَهُم ليريحوا الناسَ منْ كليب.. الطاغية.

- ١١ -

علمَ رجَالُ كليب بما يحدُث، ونقلُوا إليه سرًّا مَا يدورُ ومَا يجْرى.. لِذلكَ شعرَ بقلق شديدٍ، ورأى أنْ يَعيدَ النظرَ فى كلِّ مَا حَوْله، ومَضى إلى عَمهِ (مُرة) يَسْألُه المشورَةَ.. قالَ له الشيخُ العجوزُ:

- إنى أراك يَا كليب حَادًّا وعَنِيفا، مثلما كانَ أخى والدك.. ليتكَ يا بنى تُغيِّر مِنْ أسلوبكَ، ولَقَدْ دَفعَ (ربيعة) حياته ثمنا لتصرفاتِهِ..

ردَّ كليب: بلْ لأنه رفض الظلمَ وأبى أنْ يَقبلَ استبدادَ حسَّان اليمانى..

- لا رغبةَ لى فى أنْ نتجادَلَ فى أمر مَضَى وانقضَى.. المستقبلُ أمامُكَ واسِعٌ وعريضٌ إذا عرفت كيف تُحسنُ معَاملةَ الناسِ.

- الناسُ، يا عماه، لا تَعرف مَنْ مَعكَ، ومن عَليكَ.

- إلى هَذَا الحدِ تجهلهم؟

- لستُ أجهلُهم، لكنهم يُغَيّرون جلودَهم كلَّ يوم.. بل كلَّ ساعة، وما مِنْ واحدٍ تَستطيعُ أنْ تُودعَه ثِقتك..

- عليهمْ أنْ يَفرغُوا مَا فِى نُفوسِهم مِنْ حقدٍ، وأنْ يحلُّوا المحبة فيها.. وساعتها سوفَ يسودُ الوئام والسَّلام!

كَانَ هذَا الحوار، ومثيله، يَدورُ مَا بين العامة والخاصة.. والناسُ تَختلفُ وتتفِقُ حوْلَ مثل هَذه المواقف، وهنَاكَ وجهَات نَظر مُتباينَة، وهُناك الرأيُ الآخر، هَكذَا الناسُ مُنذ خلَقهم الله لكن النَاسَ ضَاقُوا بكلِيُبٍ وحُكْمه، وكثرَ كلامُهم عنْ عَسْفِهِ وظُلْمِهِ واستبدادِه وهُوَ غَافلٌ عنْهم، وقدْ أحسَّ بالضِّيق لمؤَامراتِ أهلِ زوجته وتمرُّدِهم عليه، فصارَ لا يهدأ له بالٌ، ولا ينعمُ بنوم.. وفَكرَ فى أخيه الزير سالم واستدعَاه لمساندَتهِ، لكن هَذَا كَان غَارقًا فى لَهْوه ولعبه وشرابه، وعَبثه، وطَربه معَ الخِلاَّن غير عَابئٍ بما يَدورُ ويَجرى.. وقال لهُ ناصحًا:

– لماذا لا تحاولُ أنْ تسيرَ بينَ النَّاس بالعدْل والقِسْطاس؟ حَاولْ أنْ تُحببَ فِيك الرعيةَ، وأن تكسِبَ ولاءَ الفرسان، وأنْ تَجمعَ مَنْ حَوْلكَ مِنَ الأعيانَ..

لكن أخاه لمْ يَستمع إليه، ورأت جليلةُ أنْ تبدأ بالتخلُّص مِنَ الزير سالم، ومَا كَانَ منها إلا أن اتهمتْه زورًا أنه حَاولَ الاعتداءَ عليها، ونقلت هَذا إلى كُليب المستبد زوْجِها، فغضبَ وثارَ، وأعلنَ أنه لابدَّ وأنْ ينتقِمَ منْهُ، ويقتله.. ومضَى إلى مضَاربِ خيامِهِ، ليجدَهُ بينَ أصحابه، وخلانهِ يشربُون ويَلْهُون، وَحوْلهُم المغنياتُ والراقصاتُ.. واتجه إليه، وانهالَ عليه صَفعًا وركلاً وضَرْبًا، والزير سالم – شقيقه الشاب الصغير لا يدافِعُ عنْ نفسِه. ولا يسألُه السببَ فيما يَفعلُه، ولا تمتد يدُه إلى شقيقه الأكبر، الذى مزقَ ثيابه، وأمره بأنْ يرتدِى

مَلابسَ الرعَاة، ويخرج معهُم إلى خدمةِ النوق والجمال، والخراف والماعز، ولم يبْد الزير سالم اعتراضًا، ولا احتجَ على أخيه.. وعَاد كليب إلى زوجَته يحكى لها مَا حَدثَ، فتظاهرت ببعْض الرضا، مع أنها كانت تتمنى لَوْ أنَّ زوجَها رجَعَ إليها وسيفه يَقطرُ مِنْ دماءِ أخيه الزير سالم.. الّذى نجَا مِنْ هَذا المصيرِ الرهيب.

كَانَ منَ الواضح أنَّ جليلة قدْ بدَأت تنفرُ مِن زوجِهَا كُليب ونَزواته وتَضيقُ بتصرفَاته وأعماله، لكنها أخفَت كلَّ ذَلِكَ، وأظهرت له المودة عَلى غيرِ ما تُبطِنُ.. وفى رأيها أنها لمْ تُغامِرْ بحياتِها منْ أجل أنْ تتخلصَ منْ حَسَّان اليمانى، لكى تقعَ فى هَذا الشرك.. إنها كانَتْ تُريدُ حياةً أفضلَ منْ هذِه، والرجلُ الذى قَامَ بدوْر البهلوان مِنْ أجْلها، ومنْ أجل قبيلتهِ حَتَّى استطاعَ أنْ يتخلّصَ من الغاصبِ اليمانى، وظهر أنه فَعلَ ذَلك منْ أجل نفْسه، لا أكثر ولاَ أقلّ.. لقدْ قتلَ اليمانى لكى يأخذَ مكَانَه فى الحكْمَ، وليطيحَ بأحلام الناس فى أن يَعيشوا أحرارًا، وليسَ ليستبدَّ بهم ويظلمَهُم.. وما كَانَت جليلةُ تظنُ أنها ستكونُ أولُ منْ يتحكَمُ فيها ويسوقُها العذاب، لذلك بدأت فى التآمُرِ عليْه، وكانت أكثرَ مكرًا منْ أن تُطيحَ به مباشرة، بلْ لجأت إلى التفكير مِنَ التخلُص مِن أخيهِ الشابِ الأصْغر، ووجدت أنَّ أفضلَ سبيل لذلكَ أنْ تُوقعَ بينَهما، وقَدْ يُثمرَ هذا عن التخلص منهما معًا، من أجلَ أنْ تعودَ السيادةُ لبنى مرة، أهل أبيها، ولكى يرتاحَ الناسُ مِنَ بنى ربيعة، وعصبيتهم، وتحكمهم..

تسلطت هَذِه الفكرةُ عَلَى جليلةٍ، وراحت تعملُ منْ أجلِهَا ليلَ نهار، وكانت ترغبُ فى أنْ تُحققَ هدفَها بالدهَاءِ والحكمةِ لأنَّ زوجهَا إذا أحسَّ منها بأىِّ لوْن منْ ألوان التآمر عليه فَسوْفَ يَطيحُ برقبتها، لِذلِك وَضعت عَلَى وجهِها قناعَ الرضا عنه والمحبة له، بينما كَانَ رأسُهَا يَعملُ للخلاَص منه.

- ١٢ -

راحتْ جليلةُ تُفكرُ فى مؤامرةٍ أخرى ضدَّ الزبير سَالم، شقيقِ زوجها - وعِندمَا عَادَ كُليبُ يومًا منْ رحلَة صَيْدٍ طَويلة قَالت لَهُ:

- منَ الواضحِ أنَ أخاكَ قد استطابَ حياةَ الرُعاةِ، وأعجبه أنْ يَعيشَ بين العبيدِ والخدمِ، الأمرُ الَّذى يُؤكدُ وضاعته. فقد نسى كرامتَه، وغَفَلَ عنْ رجُولته، ومرغَ سمعتكم فى التراب.. أمَا مِنْ سَبيلٍ لمحوِ هَذَا العَار؟

رَدَّ كُليبُ: مَا مِنْ سبيلٍ لِذَلِك غيرَ قتْله.. وواضح أننى أخطأتُ حِين تهاونتُ معَه بعدَ سقطتِه الدنيئة..

قالت، وقدْ انتابهَا فرحٌ شديد، استطاعتْ أنْ تُخفِيه بصُعُوبةٍ:

- أعرف أنَّ ذَلِكَ هو العقابُ الَّذى كَانَ لابدَّ وأن تَنزله به، لكنْ لاَ تُلوثُ يدكَ بدمِ أخيك..

- إنه لا يمكن أنْ يكونَ أخى!

واصلَت: إنى أقترحُ أنْ تُلقى به بعيدًا، فى أرض السباعِ، فلا تَشهدْ مصرعَه، إذ سَيؤرقك هَذا فى أيامِكَ المُقبلة..

أبدى كليبٌ إعجابَه بما اقترحْته عليه جليلةُ، زوجتُه.. وقـامَ عَلَـى الفَور وامتطى حصَانَه، ، ومَضى إلى حيثُ يُقيمُ أخُوه بين الرعَاةِ، وفِـى لهْجةٍ آمِرَةٍ قَالَ لَهُ:

– اتبعْنى أيُّهَا الفَتى الفَاسِق!

وسَارَ كُليب عَلى فَرسِه، ومَشى أخُوه مِنْ ورائه عَلَى قدميْـه، إلى أن وصَلاَ وادِى السِّباع، ليتركَه لمصِيره، وفجأة صَهلَ الحصانُ وشبّ عَلَـى قَدميْه الأماميتين فى ذُعـر وفَـزع، وتمكّنَ كُليـب مـنْ أنْ يَقبـضَ عَلَـى زمَامِهِ فى عُنفٍ، عِندمَا لَمَّح سَبعًا قَادمًـا عَليـه بفرائـه المُغبر، ولبدتِـه الضَّخمة، وقد فَتحَ فمَهُ لتظهرَ أنيابُه المفزعةُ، وتَبـدو مَخالبُـه المُرعبـة، وارتفعَ صوتُ زَئيره مُدوِّيًا، وحَاولَ كُليب أن يَتلقاهُ بسلاَحِهِ، ويَضربـه بحربتِهِ، إلا أنَّ اهتزازَ الحصان مِنْ تحتـه جَعَلـه يُخطـئُ التصويـبَ، وعِندهَا بـدأ الأسـدُ يُـهاجمُ الحصـانَ، وإذا بـالزيز سـالم يَثـبُ عَليـه، ويَمتطيه مُمسكًا بلبْدَتـه، ويَشـقهُ نصفين بواسطةِ خنجـره الصغـير!، وأخـرجَ قَلبَـه ليطـأه بأقدامِـهِ، إذْ كيـفَ يَجـرؤ عَلَـى مهاجمـةِ أخيـه الأكبر!، وكانَ خلاَلَ ذلك يَهتفُ قائِلاً:

– لا تَخفْ يا أخى كليب، فما هذا السبع إلا مُجرد وحْـش تافـه، سَوْف أخلصُك منه لترجعَ إلى جليلةِ، وقصْرك، ونَاسك!

عَادَ كُليب، ومن ورائه يَسيرُ أخُوه فـى صمتٍ تـامٍ، وعندمَـا وصَـلَ كُليب إلى قَصرِه، استقبلته جليلـةُ تَريـد أن تَسمعَ أخبـارَ مـا حـدث،

وكانَ أنْ رواهُ لها بالتفصيل، وفى لهجةٍ يشوبها الإعجَابُ بأخيه، فما أن انتهى منْ كَلماتِهِ، حَتَّى صَاحت جَليلة..

– دعْنى أعدُّ ثيابى وأذهبُ..

سألها: إلى أينَ؟

أجابت: أروحُ إلى أهلى يَصُونُون عِرْضِى ويَحفظُون لى كَرامتى. ويحمُون شَرفى.. أنتمْ يا بنى ربيعة ليسَ باستطاعتكم ذلكَ! وافضيحتاه!

حاوَلَ كليب تهدئتهَا، وقالَ لها:

– ألا تحمدين لهُ إنقاذه لى..

– ينقذُك، هَذا الَّذى كَانَ يَريدُ أن يَسلبَكَ شَرفَك؟

– مَاذا يُمكننى أنْ أفعَلَه به، ومعه؟!..

هدأت قليلا، ونظرتْ إليه فى قسْوةٍ، وقَالت:

– إذا كنت جادًا فى سُؤالِك، خذه إلى بئر، وانزلْه فيه، ثم اقطع الحبل الذى يَصلهُ بك، حتى لا يخْرُجَ أبدا، وبذلك تَنتقمُ لشرَفِك.. إذ (لا يسْلَم الشرفُ الرفيعُ منَ الأذى حَتى يُراقَ عَلَى جَوانِبه الدمُ)..

تَرَدَّدَ كُليبٌ بعض الوقتِ، وبعدهَا سَادَ الصمتُ إلى أنْ قطعه بقوله:

– سَوْفَ أفعَل ذلِك..

وفى اليومِ التالى خـرَجَ كُليـب، ومـنْ ورائِـه شـقيقه، ومـن حَوْلهم الفرسانُ، وعندمـا وصلُـوا إلى بـئْر السـباع، قَـالَ الزيـرُ سـالم فـى نبْـل وأريحيّة.

– دعُونِى أنزِلُ إلى هَذا البئر، أسْقيكم، وأروى خيْلَكم!

ونزلَ وملأ الدلاءَ بالماءِ، وإذا بالخيْلِ تتزاحمُ عَليها فصرخَ فيها..

– كيفَ هَذا الهرجُ والمَرج أمامَ شقيقى الأكبر كليب.. كفَى!

كَان صَوْته مُدوِّيًا، فـاهتزتْ لَـهُ الخيـلُ، وفضَّـت الاشـتباك.. وهُنَـا أدرك كليب أنه غيرُ قادر عَلى أنْ يُسىءَ لأخيه، وعَادَ إلى جَليلة يُثْنِـى عليه ويُعلِنَ عنْ إعْجابه به وتقديره لَه، فقالت متظاهرةً بالفرح..

– أحْسنت.. لو قلت غـير هَـذا لمـا أحببتـك واحـترمتُك يـا زوجِـى العَزيز..

.. لقد كنتُ أختبرُ صدْقَ وفَائِك!

- ١٣ -

أحسَّت جَليلة بشوق غَامر إلى أبيها.. الأمرُ لَمْ يَكنْ فى الحقيقةِ مُجرد شوْق ابنة لأبيهَا، لكنهَا كَانت تُريدُ أنْ تَطرحَ عَليه سُؤالاً واحدًا:

- هلْ يُمكنُ للإنسانِ أنْ يَتحولَ فى مَشاعرِهِ إلى النقيضِ؟!..

أجابَهَا أبوهَا: نَعم..

قَالت: أشعرُ أنى أصبحتُ (شريرةً)!

ضَحكَ مُرة، وقَالَ: لا يَحدثُ هَذا بين عشِيَّةٍ وضُحَاها!

- أعرفُ..

- عِندمَا يَأملُ الإنسانَ خيرا، ولا يَجدُ غيرَ الشوكِ والشر يبدأ فى التحول..

- صدقْتَ يا أبى..

- وليس يا ابنتى مَا هُوَ أفظع أثرًا مِنَ الطُّغْيَانِ!

سكَتت..

كأنما كانَ الشيخُ يُقرأ أفكارَهَا ويُفسرُ لها تَصرفَها، وكادَت أنْ تسألهُ..

– كيف يَعودُ المرءُ إلى دُنيا الخيرِ، يا أبي؟

سيجيب: عِندمَا تزُولُ أسبابُ التحول..

ورأت أن تُوفرَ عَليه الضيق، فهِي تَعلمُ كم يُعانى مِنْ زوجِها، ابن أخيه.. فغادَرَت عائدةً إلى قصرِهَا..

وعِندمَا دَلَفَتْ إلى حُجرتِها لمحَت صُورَتها فى المرآةِ، فتوقفَت عِندهَا، وراحَت تُحملقُ فيها وتتَسَاءلُ:

– أهَذِه أنا؟ أهذِه جَليلة؟! ما الَّذى جَعَلَك عَلى هَذِه الصُورةِ؟!.. إنى أرى إنسانةً أخرَى..

وألقت بنفْسِها إلى الفِراشِ، وراحت تَبكى.. وتَقولُ لنفسِها:

– أبى فَسِّر لى كُلَّ خَيرٍ.. هَذا هُوَ مَا يَفعلُه الطغيانُ فى نفوسِ الناسِ.. يبدِّلُها ويغيرُها.. هأنذا، أحَرضُ زوجى عَلَى أخيه، منْ أجلِ أخِي.. مَا كنت أتصورُ أنْ يَصلَ بى السوءُ إلى هَذَا الحدِ، وإلى هذه الدرجةِ، كنتُ أريدُ أنْ أحْيَا حيَاةً هادئةً آمنةً يَسودُهَا السلامُ، وفجأةً أجدنى مِنْ أجل تحريرِ نَفسى أسْعَى بهذه الوقيعةِ الذميمةِ، لكن مَاذا بيدِك يا جليلة لكى تَخرجى من هَذا السجنِ، وحَتَّى يُمكنك أنْ تَلتقطى أنفاسَك؟!

كَانَ أشدُ مَا يخيفهُا ويَرعبُهَا عودةُ كُلَيْب منَ الحربِ أم مِنَ الصيدِ، فلا شيءِ غيرهمَا.. مَعَ كلِّ صباحٍ يمْتطِي حصَانه، ويَحملُ سلاَحه، ويَمضِي، يُطاردُ البشر أو الحيوَانَات، يَعملُ فى هؤلاء وأولئكَ حرَابه وسيُوفَه وخنَاجره، ويعودُ بها ملطخةً بالدماءِ.. ولكم هِي آسفةً، لأنها تمنت لَوْ أنه يومًا ما عَادَ بسيْفه تَقطرُ منه دمَاءُ أخيه الزير سالم!

وسَألت نَفسَها في حدَّةٍ وقَسْوة..

– متى أقتلعُ مِنْ رأسي هَذِهِ الفكرةَ الحمقَاءَ؟ ومتى أتخلصُ مِنْ مشاعر الحقد والضغينة عَلَى الزير؟

لماذا أجْرى وراءَ كلماتٍ قد تكونُ كاذبةً، يُفضِي بها إلىَّ كاهِنٌ يَضربُ الودَعَ، أو امرأة تَقرأ الرمَالَ؟!..

ودَخلت عليها واحدةٌ مِنَ الوَصيفَاتِ تَحكِي لها بعضَ ما ارتكبَه زوجُهَا منْ فظائعَ جديدةٍ، وجَرائمَ يَشيبُ لهوْلها الولدانُ، فرفعت كفَّيْهَا إلى السَّماءِ تَسألُها الرحمةَ، وتطلُبُ منها النجدةَ.. إنها كلَّمَا تراجعَت عن رغبتها الآثمةِ فى ارتكابِ الشر، وجدت ما يدْفعُها إليه دفعًا، حتى لتجد نفسَهَا وقد امتلأت بُغْضًا لكلِّ ما حوْلها، وشعرتْ بأنها أضْعَف مِنْ أنْ تقاومَ الشُر.. وكرهت كُلَّ شَيْءٍ!

مَا عادت جَليلةٌ قادِرة عَلى احتمال الحياةِ، أو احتمال وجُود كليب أو أخِيه الزير، الَّذى لا تريدُه سالما، بل تتطلعُ إلى أنْ تراهُ حُطامًا.

وهربت منْ كلِّ ذلِك الَّذى تُعانيه إلى النوم.. لكنَّ النومَ لمْ يكن أكـثر راحةَ لها مِنَ اليقظـةِ، إذ أنَّ أحلاَمًـا مُزعِجـةً مقلقَـةً هَاجمتـهَا بشـكل قاسٍ وعنيف.. وقضتْ مضجعَها!

– ١٤ –

مضَت الأيامُ، بطيئةً مُتكاسِلَة، بلْ ومملَّةً، ولم يكنْ لَدَى جليلة مـنْ تَفكيرٍ غيرَ التخلص منَ الزير سالم الَّذى امتلأ قلبُها حقدًا عَليْه، وضِيقًا مِنه، إذ هُوَ يَخرجُ من كلِّ مؤامرةٍ تَنسجها لَـهُ كالشعرةِ مـنَ العجـين، وأخيرا خَطَرَ ببالها أمرٌ جديدٌ، اتجهت بـه إلى زوجـهَا كليـب، قائلـةً فى استعطَاف، وهى تتظَاهرُ بالمرض:

– تَعرف أنى مريضة، والأطباء وصَفوا لى شيئًا لا يقدرُ على أنْ يأتى به أحدٌ غيرُ أخيك قائد الفرسَان وكبير الأبطال..

– أىُّ شىءٍ هو؟

– أريدُ كوبًا مِنْ حليب زوجةِ الأسدِ، يُشفينى مِنْ دَائـى، العُضَـال، ويُساعدُنى على أن أنجبَ لَكَ وَريثًا للعرش.

كَانَ كليب يديرُ كلماتها فـى رأسِـهِ، وهُـوَ يُـدركَ تمامًـا أنَّـه يملـكُ الكثير مِنَ المال، والسلْطةِ، والأرْض، والمـزارع، والحدائـق، والقصـور، وأيضا العبيدَ، وليسَ لديه طِفْل، هُوَ أغلى مـنْ كـلِّ هَـذا، ولـيرثَ كُـلَّ ذلِك.. وإذا ما كَانَ فى استطاعة أخيه أنْ يُسَاعدَه على إنجـابِ طفـل، فلمَاذا لا يَسألُه المعُونةَ، وتحقيق طَلَبِ جليلةِ الجميلة؟.. قَالَ لهَا:

– سَوفَ آمره بأنْ يَأتيك بما ترْغبين فيه..

استدْعى كليب إليه أخَاه الزير سالم، وقدمَ لهُ إناء، وقال:

– خُذ هَذا الإناءَ، إلى الغَابة، واملأه بحليب زوجةِ السبعِ..

إنه الدوَاء لزوجتى جليلة.

قال الزيرُ سالم: حُبًا وكَرامةً. فقط أريدُ درعًا وسيفًا وبعضَ الفرسَان.

سمَعت ذلك جَليلة، وهى فى فراشِها مُدعية المرضَ، فرفعت صوتَهَا قائلة:

– درعٌ، وسيفٌ، وفرسَان؟ ومَاذا ستفعل أنت؟

ردَّ عليها الزيرُ سالم: إننى منْ أجل أخى، أذهبُ بدُونِ سلاَح.

ومضَى فى جَيْبه سكينهُ الصَّغيرُ، وفى يدِه عَصَاه، وانطلقَ عَلى الفور إلى الغابة، واختار مكانًا كثيفَ الأشجار فى وادِى السباع، وكمن فى صمْتٍ وهدُوءٍ. إن هى إلا لحظات، وسمعَ زئير أسدٍ قَادِم، كان يهز الدنيا منْ حوْله، فقامَ له الزيرُ سالم، وقبضَ عَلى ذِيْله بيمنَاه، وتركَ عصَاه، وأطبق بيسْراه علَى الذيْل، وراح يُطوح الأسَد فى الهواءِ، ويديرُه بينَ يدَيْهِ، وكأنه لعْبة، إلَى أنْ دَارت رأسُ المسكين، وزَئيره يصلُ عنانَ السَّماءُ، ثم هَوى به منْ فوْق صَخْرةٍ، وإذا بصَوْت تحطيم جُمجُمته وطقْطقَة عظَامه، يعلُو.. ويسودُ صمتٌ وهدُوءٌ شاملَيْن، ونفض البطلُ يديه، والتقطَ عصَاه. وجلسَ مُسْندًا ظهرَه إلى شجرةٍ شامخةٍ،

ينتظرُهَا.. إذْ كَانَ على يقين مِنْ أنَّ زوجَـة الأسـد سـتأتِى بعْـدَ قليـل، وجاءَت.. ومن حولهَا أشـبالُها السَّبْعة، ورأت زوجَـها الأسَدَ صريعًـا طريحًا، فنظرت إلى الزير سـالم والشر والشـررُ يتَطـايرُ مـنْ عَينيـها.. ومَا كان منه إلاَّ أنْ قَفزَ عَاليـا، وتعلـقَ بغصْـن شـجرةٍ، اعتلاَهـا، وراحَ يرقُبها، وأشـبالها يرضِعـون منـها، غـير مُدركـين مـا جَـرى لأبيـهم.. وفوجئت الأمُّ به، يَقفزُ عليها مِنْ فوْق الشجرة، ويستوى علـى ظـهْرها كأنها حمار أو بغْل، وفى يدِه الإنَاء الذى أعطاهُ إيَّاه أخوه كُلَيْب..

قَبضَ الزيرُ سالم بيدهِ عَلى عُنقِـهَا، ولـفَّ سَـاقيه مِـنْ حولهَـا، فلـمْ تَستَطع الحركةَ، واليـدُ الأخـرى حاملـة الإنَـاء وضَعَـه تحـت ضرْعـها وضغطَ عليه ليمتلئ الإنـاءُ بالحليب.. ثـم قادهـا مـن رقبتـها، فـالتقطَ بسـرعةٍ رأس زوجـهَا الأسـد الصريـع، ومضـى ومـن ورائـه الأشـبال السَّبعة، تسيرُ خلف أمهَا بهدوءٍ، كأنّ كلاً منها جروٌ صغيرٌ، وعَـاد إلى المدينة.. وتدفقت الجماهيرُ إلى الشوارع والطرقاتِ لترى منظرًا لم يَـسعدْ إنسان برؤيته منْ قبلُ ولا منْ بعدُ.. وراحُوا يُصفقُـون لـه ويـهْتفُونَ، إذ كان ما يرونه غريبا بحق: رجل يركب زوجةَ الأسدِ، ويضَـعُ فـى يـده إناءَ الحليب ويـدَه الأخـرى يسـند رأس زوجـها الأسـد، ويحيـط بـه أشبالهما السبعة..

كَانت جَليلةُ وكليـب قـد سمعَـا ضجـة النـاس، فـأطلا مـنَ النـافذة ليشاركوهم فى رؤيةِ هـذا المشـهدِ العجيـب، وسـارعا يَـنزلان إلى بـابِ

القصر ليستقبلاه.. جليلة، وقلبها يغلى سخطًا عليه لأنه لم ينجُ فقط منَ المؤامرة، بل لأنه أتى عملاً بُطوليا خَارقًا أذهلَ الجميع، وكان أخوه كليب سعيدا به راضيا عنه إذ حقق لجليلة الجميلة ما تصبُو إليه وترغبُ فيه.. هَذا الَّذى سَيجعلهَا تنجبُ وَلىَّ العهْد، ووَارثَ العرش.. لقد استقبَلا الزيرَ فى حَفاوةٍ كبيرةٍ وقدَّموا له التهنئةَ عَلَى مَا قَام بِه.. وشكرهما البطلُ المتواضع، ولم يغادرهما إلى وحدته إلا بعد أن نَصحَ أخاه قائلاً:

– عليك.. ألا تستمعَ إلى قولِ الأعداءِ، ولا تأمن شرهُم وكيدهُم.. خاصةً إنَّ كيدهُنَّ عَظِيم!

– ١٥ –

رجعت جليلةُ، وكليب إلى القصر، ومعهما إناءُ الحليب، بينما اقتاد الحراسُ زوجة السبع، وأشبالها السبعة.. وقبل أن ينطق كليب بكلمة واحدة يشيدُ بما فعلهُ أخوه، فوجئ بجليلة تقولُ في ثورة وغضب شديدين.

– هل سمعت؟ أن أخاك يُعرّضُ بي.. وهو يعنيني بقوله إنّ كيدهن عظيم! إنّ هذا الفاسد الفاسق يستحقُ منك أقصى عُقوبة.

قال كليبٌ يهدىء من ثورتها: لا تهتمي بكلامه، فهو صغيرُ السّن. ولا أظنني قادرا على ردّ جميله لأنه أتى بالحليب. وإذا بي أسيءُ إليه وأعاتبه على كلمةٍ شاردةٍ صدرت عنه..

إنها ليست كلمةً شاردةً، بل هو يعني كلّ حرف منها. ولن أشرب ما أتى به منْ حليب إلاّ إذا وعدْتني بأنْ تنال منه بسبب إساءته لي..

وعدها كليب بأن يُحقق لها كل ما تريدُ، قالت:

– إني أرى أن ترقد في فراشك متمارضًا، ونستدعيه إلينا من أجل أنْ يأتي لك بشيء من الماء منْ بئر السباع.. لأن ذلك هو الذي سوف يشفيك منْ مرضك!

وافق كليب على اقتراحها، وبعد فترة قصيرة، قام بتمثيل دور المريض، وراح يتقلبُ في سريره، صارخا مُتألما.. واستدعوا له أخاهُ الزير سالم، فسأله أنْ يأتيه بشربة ماءٍ مِنْ بئر السباع!

انطلق الزير سالم ليأتي بحمار يضعُ فوق ظهْره قربتيْن فارغيْن وقاد الحمار إلى البئر وهُو يستعيدُ في رأسه تلك المطالب المتكررة الغريبة ويتساءلُ عمن وراءها، لكن ذهْنه لم يتَّجه قط إلى جَليلة، فما تصور قط أنها على صلة به، إذ كانَ يَحسنُ الظن بها، وعندما وصل ربَط حمارهُ إلى شجرة، ونزل إلى البئر حاملاً القربتيْن..

وفجأة، وعلى حين غفلة ارتفع نهيقُ الحمار، الأمرُ الذى دُهش له الزيرُ سالم، ولم يأبه له كثيرا، وكان الذى حدث أنَّ الحمار لمح عنْ قرب أسدًا نائمًا، وشعر بالخوْف وأطلق نهيقه، فأيقظ الأسد.. وكأنما حفر بغبائه لنفْسه قبْرا، إذ اتجه الأسدُ نحوه، وافْترسه في يسر وسُهُولة.

انتهى الزيرُ سالم من مهمته في قاع البئر، وصَعد إلى السطح ليرى ذلك المشهدَ الرهيب، فغضب بشدةٍ لاعتداء الأسد على حماره، وأمسك بعصاهُ وهوى بها فوق رأس الحيوان المعتدِى، وإذا به يسقطُ مغشيا عليه، وحمل الزيرُ سالم (برْدعة) الحمار ووضعها فوق ظهر الأسد بعد أن أفاق قليلا، ووضع القربتين على جانبيه وركبه، وساقه كما يُسوقُ الحمار عائدًا به إلى أخيه كليب، وكان الأسدُ كلما تباطأ في سيْره ضربه الزيرُ سالم بعصاه قائلا:

– لقدْ أكلتَ حمارى، ولم يكُن أمامى غيرَ أنْ أجعلَ منكَ حمارا!

استقبلَ كليب شقيقه أحسنَ استقبال، وقدّر له كلَّ التقدير ما صَنعه، وجاءَت جليلةِ بأكوابِ الماءِ التى أتَى بِهَا الزيرُ سالم لتسْقى زوجَها، وهى فى منتهى الضيق، لأَنَّ الأسُودَ لم تَفترسْ هَذا الأخَ الصِّنْديد، وكأنَّ الأقدارَ تحفظُ عليه حياته من أجل تحقيق النبوءة الّتى تَقولُ إنه سَوفَ يَنتقُم لمصرع كليب وهى تريد أنَ تتخلصَ مِنَ الزيرِ سالم، قبل أن تتخلصَ منْ كليب!

لقد جلسَ كليب إلى أخيهِ، بعدَ تَعاطى ماء البئر كدوَاء، واقترحَ عَلَى أخيه أنْ يمسِكَ بعصَا الحكْم، وأن يخلفَه عَلَى العرْش، إذْ ضاقَ كليب بعدَاءِ الناس له، وتآمرهم عليه، خاصّة وقَد وصلتْ إلى مسَامعه تلكَ الفِرَق التى يجمعها جساس شقيقُ زوجته جليلة، ويدرِّبها على القتال، ويتساءَل:

لمن يعدُّهَا؟.. ثُم مَنْ هِىَ هذِه المرأة (سعاد) التى لا يعرف أحدٌ لها أصْلا، ومع ذلك يَحميها جساس ويْحمِى ناقتها، ويَسمحُ لهذه الناقة أن تَشَاركَ قطيعَه مراعيه؟ إنه لمْ يرفَع صوْته بهذه التسَاؤُلات، ولم يضعْها أمامَ أخيه الزير سالم، لكنَّه راحَ يعرضُ عليه منْ جدِيد أنْ يحملَ عنه عِبْء الحكْم، قال له الزير:

– ها أنت قد رأيتَ أننى لم أطقْ عدوانَ الأسدَ على حمارى، فما بالك لوْ أنَّ أحدًا حاولَ أن يُسىء إليك؟!.. إننى لا أريدُ الحكمَ، وكل

مـا أسـألك إيّـاه أن تَمْنَحَنِـى تلـكَ الأرض التـى يسـميها النـاسُ وادِى السباع، وسأطهرها مـن هـذه الحيوانـاتِ المفترسَـة، وأبنـى فيـها بيتًـا أعيشُ فيه ويشاركنى فيـه فيـه شـقيقُ زوْجَتـك.. وسـأبنى البيـت مـن جماجم الأسود..

قَالَ كليب: لَكَ هذَا..

- ١٦ -

كَانَ نجمُ جساس يَعلُو، وكُلما ثـارَ كُليب وأعلـن عـنْ غضبـهِ عليـه حَاولت جليلة أنْ تخففَ منْ مشـاعر البُغـض التـى يَحملـها لأخيـها، وتؤكدُ إخلاصَه لهما، كما هوَّنت منْ أمر (سـعاد)، فمـا كـانت تَعـرفُ أنها أخـت حسَّـان اليمـانى، وتصـوَّرت أنـها امـرأة تُحسـنُ اسـتخدامَ مواهِبهَا فى الكلام، والحديثِ، وفى قوْل الشعر.. لكـن الـزوج أرادَ أنْ يكسرَ شوكة جسَّاس، وأنْ يَقضى عَلَى نفوذِ هذِه المرأة التى تسيرُ بيْـنَ الناس بما يُسىء إليه، فأمرَ كليـب واحـدًا مِـنْ غِلمانِـه أن يقتـلَ تلـكَ الناقَةَ التى اسمها (الباسُوس) ولم يكنْ يَدرى أنَّـه بذلـكَ سَـوفَ يَشـعلُ حربًا ضارية.. والحربُ حين تبدأ، لا أحد يَستطيعُ أنْ يعرفَ متـى، ولا كيف تنتهى..

وعِندمَا عَلَم جسَّاسُ بنُ مرة بمصرعِ الناقةِ أعْلـن عَـنْ غَضبـهِ وجَمـعَ الشبابَ مِنْ حَولِه، وقَالَ لهم..

أرأيتم ما فَعله كليبٌ؟!.. لقدْ سكتنا عَلى استبدَادِه ومظالـه طويـلاً، ولم نَرفع رايةَ العصْيان فى وجهه، لكن هَاهو يَعتدِى علـى ناقـةِ امـرأةٍ مَسكينةٍ لجأت إلينا لنحميها.. ولقد حَاولت مع شقيقتى أن نصْلحَ مـن

اعوجاجِ هذا الحاكم غَيرَ أننا فشلْنا فشلاً تاما، لأنه يصر علَى أنْ يأخذَ لنفسِه كلَّ شيءٍ، ويجبُ علينا أنْ نُوقفه عِندَ حَدِّهِ!

عَلِمَ مُرَّةُ (الشيخ العجوزُ) الطيبُ السالم بما حدَث، وكان مِنْ رأيه أنْ يبعثَ جساس ابنه برسالةٍ إلى كُلَيْب زوج أخته ليعَاتبه عَلَى مَا فعلَ، ويسأله الاعتذارَ عما وقعَ منه، وَيطلبَ منه وعدًا قاطعًا بألاَّ يَعودَ إليه أوْ يكرره..

استجابَ جسَّاس لنصيحة أبيه، وكَتبَ الرسالةَ، وقرأهَا عَلَى أبيه، وعَلَى الناس المحيطين به، فأقروهَا، واستدْعى واحدًا مِنْ رجَاله ليحملَها إلى كليب..

مَضَى حاملُ الرسالةِ فى طريقه إلى قصر كليب.. لكن واحدًا مِنَ رجال سُعاد كَانَ يَترصدُه، ويَنتظِرُه، واستطاعَ أنْ يخدَعَه، ويسلبَه الرسالةَ، ويَضعُ أخرى، مَليئةً بالشتائم والسباب..

قرأ كليب الرسَالةَ، واستشاطَ غضَبا، ومزَّقها، وصفعَ حاملَ الرسالةِ، وطردَه منْ حضْرته.. ونادَى إليه جليلة صارخًا:

– اسمعى ما يقولُه عنى أخُوك جسَّاس.. هل بلغَت به الوقاحةُ أنْ يتمادَى إلى هذا الحد؟ كيف يجرُؤُ على أنْ يُسىءَ إلى زوج شقيقته وشيخِ قبيلته وملكِ بلاَده؟! هل كُلُّ ذَلِكَ لمجردِ أنَّ واحدًا مِنْ أتباعى ذَبحَ تلك الناقة العجفاء؟ ما قيمتها وصاحبتها التى لا يدرى مِنْ أىِّ بلاَد الله هبَطت عَلَيْنا.. والله لأعاقبنك يا جسَّاس عقابًا رهيبًا..

كانت الكلماتُ تنطلقُ منه مثلُ قذائفِ الحِمَم والنار التى تُلقى بالبراكين حين تثُور، ولمْ تستطعْ جَلِيلة أن تُوقفَ السيلَ العرِم المنهمرَ منْ صرخَاتِ زوجها، وكل ما فعلته أن رَاحت تَربتُ عَلَى كتفِهِ عَلَى أملٍ أنْ يهدأ.. وهمسَت:

– ما رأيكَ فى أن تسترضى هذِه المرأةَ وتعوِّضَهَا عنْ نَاقتِها؟

– فلتأخُذْ عشرةَ جمالٍ مقَابل ناقتِها!

– إذا رضِيت وهَدَأت ربما استطعْنا أن نتفَاهَم..

– أى تفَاهُمٍ بعدَ هذَا السبابِ الذى وصلَنى منْ أخيك؟

ربما استطعْت أنْ أعينَك عَلَى هذَا الأمْر..

كيفَ؟! إنِّى أراكَ فى صفِ أخيك أكْثر مما أنت فى صفى.

فى مِثْلِ هذِه الظروفِ انحيازى لطرفٍ دُونَ الآخرَ يزيدُ الأمورَ تعقيدًا..

إذنْ، حَاولى مع هَذِه المرأةِ.. ومعَ أخيك.. لم تكنْ جليلَة فى واقعِ الأمرِ محايدَة، وكانَتْ بالفعْل قدْ نبذَت الحيَاد، وصَارت إلى جانَب أخيها قلبًا وقَالبًا.. لكنَّ ذلك لمْ يحلْ بينها وبيْنَ المحاوَلة، لأنَ النار إذا اشتعَلَت فلَن تَجدَ مَنْ يُطْفِؤُهَا.. لذلك بعثت للعجوزِ سعاد تسألها أن تقبلَ قطيعًا مِنَ الجمال مقابل ناقتها العجْفاء، وانتهزت سعادُ الفرصةَ لكى تولْولَ على ناقتها، حفيدةَ ناقةِ النبى صالح!!، كما

ادَّعت، ورفضت، وأبتْ إلاَّ أنْ يقتصَّ جسَّاس حاميها ورَاعيها لما وقَعَ عليها منْ ظلْمٍ.. وهى لن ترتاحَ فـى قرارة نفسها إلا إذا انتقمت من كُليب قاتل ناقتها، وقاتل أخيها حسَّان اليمانى..

واشتدَّ الصراعُ واستفْحل الأمرُ.

– ١٧ –

عَادَ حاملُ رسالةِ جسَّاس إليه يَحكى كيفَ قَابلَه كُليب وكيفَ أهانَه، وانهالَ عَليْه ضربًا وركْلاً فورَ اطلاَعه عَلَى الرسالة.. والمسكين لمْ يكنْ يَعرفُ أنه قدْ خُدعَ منْ قبل (سُعاد)، وأنَّ الرسَالةَ التى حَملها لم تكنْ هِى الَّتى بَعَثَ بها جسَّاس.. وقد غَضَبَ جسَّاس غَضبًا شديدًا، فَقَد مدَّ يدَه بالسلام، والوئام كما نَصحهُ أبُوه، لكنَّ ابنَ عمه رَفضَ هذه اليد، وكَانَ صوتُ ولولة سعاد يصلُ إلى أذنيْه، وشقَّ عليْه كثيرًا أنْ تنخرطَ فى البكَاءِ إلى هذا الحدِّ، ثمَّ هَاهُم أتباعه وأصحَابه يَغرونه بالتخلُّص منْ هَذا الملكِ المستبدّ الظَّالم.. خاصةً وقد ضاقت أخْتُه بهذا الزوْجِ المُتعجرف، ومَا كانت تُريدُ أنْ تَستبقيَه لولا خشيتها مِنْ أن ينتقمَ لَه شقيقه الزيرُ سالم، وقَد حَاولت بشتى السُّبل أنْ تَتَخلَّصَ منه، وفشلَت..

هلْ منْ سبيل يا الله لكى تهدَأ الأُمُورُ؟ وهلْ منَ المكن أنْ يتسبَّب مقتل هذه الناقةِ البسُوس فى حربٍ تَأكلُ الأخضرَ واليابسَ؟!..

لقدْ وقعَت الفتنةَ ومَا مِنْ وسيلةٍ لتهدئةِ الأمور، فمَا كانَ منها إلا أنْ لجأتْ إلى أبيها (مُرة) وإلى (بنى مرة) تَلوذُ بهمْ.. لأنها أصبحت مهددة بالقتلِ منْ جَانبِ زوجِها..

أمَّا جسَّاس فلم يَجدْ أمامَه سَبيلاً غيرَ قتال كُليب الذى اعتدى عَلَى حماه، وقَتلَ الناقةِ.. إنها لم تَعُد مجردَ ناقةٍ بل هى (الشرف) الَّذى يجبُ أنْ يذودَ عنْه ليسلم، والطريقُ الوحيدُ لذلك هُوَ أنْ يُراقَ عَلَى جَوانبِهِ الدَّم.. وتقدمَ جساس، ومعَه فتيانه الأشداء، فحملوا عَلَى قصر كليب، ونحيب سعاد يَملأُ الآفاق مِنْ حوْلهم.. وقامُوا قومةَ رجلٍ واحدٍ باقتحام قصر كليب، وقتلُوه، وأضرمُوا النَّار - الَّتى فى قلوبهم - فى القصر وكل مَا فيه.. فانتفضَ بنُو ربيعة - آل كليب - وانقضُّوا عَلَى بنى مُرة فى حربِ البسُوس الَّتى صَارت فى التاريخِ دليلاً لسُوءِ التقدير.

عاشت جليلة فى كَنَفِ أبيها بعد مصرعِ زوجَها، وبعد أن اندلَعَت الحربُ ضروسًا، لا تُبْقى ولا تذَر.. بينما دَخلَ شقيقُها جساس إلى القتال ضد الزيرِ سالم الذى طارَ صوَابُه عِندمَا فقدَ أخَاه كليب..

استمرَّت هذِه الحَربُ التى حملت اسم (البسُوس) - الناقة العجفاء، ذات الرائحة المعطرة بالمسْك والصندل - وظلت هذه الحربُ مُشتعلة أربعينَ عامًا.. عَامًا بعد آخر، وكثيرا ما نَسِى المقاتلُون كيفَ بدأ القتالُ، ونسوا جليلة بنت مرة، وأباها مرة، ولم يعُد الجانب الآخر يتحدثُ عنْ كليبٍ وربيعة، وإنما يَندفعُ كلُّ طرفٍ للحربِ دون أن يَسألَ أو يَتساءَلَ: لماذَا هى؟!.. وهل نستطيعُ أنْ ننفضَ أيْدينَا مِنْها، وأنْ يشيع السلامَ والوئام فيما بيننا؟

وحَاولَ العربُ أنْ يدافعُوا عنْ أنفسهم قائلين: إنها كانت حرْبا من أجل الذُّوْدِ عَنِ الشرف والحمى..

وكانت جليلة فى أواخر أيامها تنوحُ وتَبكى، وتَشربُ دُموعَها، وهى تقولُ:

الغدر والخيانة والخديعة والحرب، نيران تحرق الأعواد، لكنها تنقلبُ على مُشعِليها فتحرقهُم ويصيرون وقودًا لها..

ويسكتُ راوى سيرة الزير سالم فى صرَاعه مع جسَّاس.. ويتنهدُ مِنْ أعماقِ قلْبه، والقوسُ يَجرى عَلَى الربابة، ويَنشدُ:

– هل كتب عَلَى العرب أنْ يصبحُوا دَائما: بنى مرة، وبنى ربيعة؟!.. وتشتعلُ النيرانُ بْينَ الجيرَان، والأهْل – كُلَّ يوم – من أجْلَ باسوس جديدة.. أما آن لنا نحنُ العربَ أنْ نقرَّ ونَعترفَ بأن السلامَ والوئام يَجبُ أنْ يحلا مكانَ الحربِ والخصامِ، وإلا نلْنا ما نَالُوه منْ دمَار وحطامٍ.

رقم الإيداع	٢٠٠٢/٧٤٧٨
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-6297-8

٧/٢٠٠١/١٢٩

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)

obeikandl.com